الجمهوريـة الجزائرية الديمقراطيـة الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة-أحمد زبانة- غليزان

كلية الآداب واللغـات

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في البلاغة الجديدة

ماستر تخصص لسانيات الخطاب

أ.د ناعوس بن يحي

المقدمة

تعتبر الكتابة في الحجاج طريقا يصعب مسلكه لكونه محفوفا بجملة من المحاذير على رأسها ،أن هذا الحقل المعرفي لم يستقر بعد على أركانه الأساسية التي تُبنى عليها العلوم عادة فتنتقل بواسطتها من التنظير إلى التطبيق .

و قد حاولنا جاهدين في هذا الكتاب تبيان النقاط الأساسية التي يحتاجها الخائض لهذا المجال المعرفي الخصب الذي بدأت بوادرها منذ أن نطق الإنسان أول كلمة في هذا الوجود، و قد اثبتت الكتب السماوية ذلك في المحاورات التي دارت بين الأنبياء و أقوامهم عن طريق دحض الحجة بالحجة .

و قد بحثت في قصة نبي الله نوح عليه السلام في القرآن الكريم، و ليس بينه وبين آدم عليه السلام إلا خمسة أجداد كما ذكر ذلك أصبح السير ،و قد استنتجنا اعتماد الحجاج طريقة في الحوار ،و في تبليغ الرسالة، و كأنهم انتهجوا نفس المنهج الذي أمر الله به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:" ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125) "

و ذكر أهل التفسير أن مراتب الحجاج في القرآن الكريم ،انطلاقا من هذه الآية، على ثلاثة وهي:

1. الدعوة بالحجة للحكماء أي لأهل العلم
2. الدعوة بالموعظة و تكون لعامة الناس
3. الدعوة بالجدال لأهل اللدد في الخصومة أي المعاندين.

و سيجد القارئ في هذه المحاضرات جملة الدراسات حول البلاغة الجديدة و الحجاج و علاقتها بتقنيات الخطاب.

البلاغة الجديدة أو نظرية الحجاج عند بيرلمان و تتيكا :

تمهيد : قبل الولوج إلى عمق النظرية عندهما يجدر بنا منهجيا أن ننظر إلى تعريف الحجاج عندهما:

الحجاج عند بيرلمان (Perlman) و تيتكا (Tyteca) :

لقد عرّف بيرلمان و تيتكا الحجاج بتعريفات عدّة في مواضع مختلفة في الدّرس البلاغي المعاصر من خلال كتابه " البلاغة الجديدة " 1958 و هو عنوان فرعي لكتاب " مصنف في الحجاج " و هو « المعجم الحقيقي المجمل لكلّ أشكال الحجّج و تأثيرها» .[1] و كتاب آخر مع تيتكا " دراسة الحجاج " الذّي درسا فيه تقنيّات الخطاب وقد كان بيرلمان معنيّا « بقضيّة العقل العمليّ أيّ تحديد دور العقل في الممارسة » [2].أيّ اعطاء للعقل الأولويّة في تحليل المواضيع . فالاتّجاه القويّ نحو « بلاغة الإقناع الذّي جسّده " مصنّف في الحجاج " هو إجابة عن مأزق المنطق الصّوري وعجزه في الفكر المعاصر عن التعامل مع القضايا التّي تنفلت من الاختزال الشّكلي و الحساب »[3]. أيّ أنّه دافع من خلال مصنّفه عن بلاغة الاقناع و الإجابة على الكثير من التّساؤلات .

و يحدّد بيرلمان و تيتكا موضوع نظرية الحجــاج في «دراسة التّقنيّات الخطابيّة التّي تمكّن من إثارة و تعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدّمة » [4]. حيث يقصد أنّ التفاعل و الإنسجام الذّهني و العقلي في الأطروحات المعروضة هو محور الحجاج. و منه يتضّح لنا أنّ الحجاج عندهما لا يقتصر على الاقناع و التّأثير في الغير بل يتعدى الى الحث على العمل و الاستعداد له. كما أنّ بيرلمان و تيتكا يقولان : « ليس الحجاج في النّهاية سوى دراسة لطبيعة العقول ثمّ اختيار أحسن السّبل لمحاورتها ،و الاصغاء إليها و محاولة لحيازة انسجامها ... فإذا لم توضع هذه الأمور النفسيّة و الاجتماعيّة في الحسبان فإنّ الحجاج يكون بلا غاية و بلا تأثير» [5]. أيّ أنّ الحجاج لا يكون إلا بالتعامل مع العقل و مراعاة الجوانب النفسيّة و الاجتماعيّة.

كما يرى بيرلمان أنّ للقيّم دورا فعّالا "في بناء الثّقة بين المتحاورين ، لذا اعتبرها قواعد حجاجية تستند عليها لكي تحمل المخاطب على القيام بأفعال معيّنة بدل أخرى ...فبالقيّم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذّي يريده المبدع »[6].بمعنى أنّ القيّم في نظر بيرلمان أساسيّة في الحجاج للإدلاء بالحقيقة .

البلاغة الجديدة عند بيرلمان و تتيكا:

---

[1] عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة ،ص83

[2] المرجع نفسه ، ص84

[3] المرجع نفسه ، نفس الصفحة

[4] المرجع نفسه ، ص85

[5] عبد اللطيف عادل ، المرجع السابق ، ص 76

[6] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص112

لقد اختلفت زوايا النظر في دراسة الحجاج ، فمنهم من انطلق من زاوية بلاغية وأخرى فلسفية و أخرى التداولية وغيرها . حيث تبين للدارسين المعاصرين إلزامية الرجوع الى قراءة البلاغة القديمة أو الكلاسيكية و تطويرها بصفة عامة و الكشف عن خصوصياتها ، فلكل واحد طريقته و منهجيته الخاصة به، وعليه سنتناول في البداية نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة عند أحد روادها البارزين شايم بيرلمان و زميله تتيكا.

لقد شكلت مؤلفات بيرلمان و تتيكا خطوة كبيرة في الدرس البلاغي الجديد ، علما أن الدرس البلاغي القديم الذي أرسى معالمه و أركانه " أرسطو" ضمن كتابة " الخطابة " لا يختلف عن مصنفهما في الحجاج "الخطابة الجديدة " سنة 1958. حيث حاول بعثها و بناءها من جديد في ثوب جديد و هي « النظرية الحجاجية التي تكون مطابقة للبلاغة»[7].بمعنى أنّ النظرية الحجاجية و بكل المكونات الأسلوبية الموجودة في خطاب ما ، هي عبارة عن مستويات معنية من مستويات الحجاج. حيث نجد أن بيرلمان يركز اهتمامه على الحجاج « قضاياه ، أطره ، روافده ، أنواعه ، تجلياته ، بحسب مقامات التوظيف و سياقاته »[8]. أي أن الحجاج يهتم بالقضايا و الأطروحات المختلفة و الروافد و التجليات على قدر المقام و السياق.

كما يحدد بيرلمان و تتيكا موضوع نظرية الحجاج في « دراسة التقنيات الخطابية ، التي تمكن من اثارة و تعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة »[9] و عليه فإن أساس الحجاج هو الانسجام الذهني مع المواقف المقدمة و المطروحة لدراسة التقنيات الخطابية. و انطلاقا مما سبق تعد نظرية الحجاج التي طورها بيرلمان من أهم النظريات المعاصرة للبلاغة فهي « تهتم بأساليب اجراء اللغة و تنويعات الخطاب ، و مقاماته و طبائع الناس المعنيين بكل تلفظ معين»[10] . أي أن الاهتمام المتنوع للعملية الحجاجية ، يكون بطرق متنوعة ، تختلف باختلاف الناس و اختلاف وعيهم وتفكيرهم.

اضافة الى ذلك يرى بيرلمان« أن تحقيق الإقتناع الذي هو غاية يقع في منطقة وسطى بين الإستدلال و الإقناع »[11] ، بمعنى أن الاقتناع يتوسط الاستدلال الذي يتعلق بالمنطق ، ويتوسط الاقناع ، و عليه « فالحجاج مجاله الخطابة أو هو أقرب الى الخطابة، في حين أنّ الاستدلال مجاله المنطق »[12] . بمعنى أنّ نتائج الاستدلال منطقية تستخلص من المقدمات ، بينما الحجاج نتائجه مرتبطة بالمقام .كما يمكن لنا أن نقول : « أن المؤلفين يجعلان

---

7 محمد سالم محمد الأمين طلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ،ص105

8 المرجع نفسه ، ص104.

9 عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص85.

10 محمد سالم محمد الامين الطلبة ،مفهوم الحجاج عند بيرلمان ، ضمن الحجاج مفهومه و مجالاته ، حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، ج2 ، 2010 ،اربد الأردن ، ص180

11 عبد الله صولة ، نظرية في الحجاج دراسات و تطبيقات ، مسكيلياني للنشر ، ط1 ، تونس ، 2011 ، ص14.

12 المرجع نفسه ، ص 14

الإقتناع و هو عقلي دائما ، أساس الاذعان و أساس الحجاج ، و أن الإقناع بما هو ذاتي و خاص و ضيق لا يعتد به الحجاج »[13] و هذا يدل على أنّ الإقتناع و الإقناع نوعان من الحجاج ، كما عدّ أنواعا عدة من الحجاج.

و زيادة على ما ذكر يرى المؤلفان « أنه ما من محاجة الاّ و الباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما»[14] أي أنّ كل فكرة يجب التدقيق و التشديد عليها لتصبح واضحة لفرضها على المتلقي .و اعتبر بيرلمان أن الحجاج على « أنه صناعة الجدل من ناحية و صناعة الخطابة من ناحية أخرى »[15] . و هنا يقصد ما هو حجاج جدل ،وما هو حجاج خطابة .

و على هذا فإن « غاية الحجاج الأساسية ، إنما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه الى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل »[16] .

و قد قدم بيرلمان و زميلته « الغاية من تقريبنا بين الحجاج و الخطاية أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب الى جعله يقتنع و يسلم و يصادق على ما يعرض عليه »[17]. و هنا يثبت على أن المتلقي أو المستمع تبنى عليه العملية الحجاجية الإقناعية ، فبتغير المستمع يتغير شكل الحجاج ، و يقول كذلك « أنّ غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها ، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب ، و هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة »[18]. أي أن بيرلمان يبين أنّ الحجاج الأمثل يكون في قوة الحجة و اخضاع السامعين بشكل عام ، أو على الأقل جعلهم على الاستعداد للعمل.

ومن هنا يتسنى لنا قبل أن نتطرق الى ملامح الحجاج عند بيرلمان أن نشير الى ملامح البلاغة من وجهة نظر الكلاسيكية وهي سبعة : «تتمثل

1- الإقناع أي إيداء الاتفاق.

2- الإعجاب ، الإغراء ، أو التلاعب و التبرير .

---

13 المرجع نفسه ، ص15

14 المرجع نفسه ، ص16

15 سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث للنشر ، ط1 ،الاردن 2008 ، ص22

16 المرجع نفسه ، ص21

17 عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ،ص 86

18 محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص108.

3- تمرير الرأي أو ما هو رأي محتمل بحجج متينة .

4- اقتراح الضمني من خلال الصريح .

5- تأسيس المعنى المجازي على المعنى الظاهري .

6- استعمال اللغة المجازية و الأسلوبية و الأدبية .

7- اكتشاف نوايا المتكلم ، أو الكاتب و منحها حجمها اللائق بها . »[19]

كل هذه الملامح جعلت الدارسين يطورونها بما يلائم الخطابات و النصوص ،حيث أصبحت تتمثل في خمسة « ملامح رئيسية لبيرلمان :

1- أن يتوجه الى مستمع .

2- أن يعبر عنه بلغة طبيعية .

3- أن تكون مسلماته لا تعدو كونها احتمالية .

4- ألا يفتقر تقدمه الى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة .

5- أن تكون نتائجه غير ملزمة (احتمالية غير حتمية). »[20]

إنّ هذه الملامح تبرز بعض المميزات للخطاب الحجاجي ، حيث أن الحجاج استراتيجية لغوية تكتسب بعدها من سياق الخطاب و التخاطب.

و في نهاية المطاف يقولان : « فليس الحجاج في النهاية سوى دراسته لطبيعة العقول ، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها و الإصغاء اليها و محاولة لحيازة انسجامها الإيجابي و التحامها مع الطرح المقدم ، فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية و الاجتماعية في الحسبان ، فإنّ الحجاج بلا غاية و بلا تأثير » [21] . و يقصد أن التفاعل مع الخطابات تحكمه الأمور النفسية و الاجتماعية حتى يكون الحجاج له تأثير و هدف.

و أخيرا نستنتج أن البلاغة الجديدة عند بيرلمان هي ضرب من الإحياء مع التطوير و التجديد في جميع الميادين التي تتعلق بكل أنواع الخطاب.

---

[19] محمد سالم محمد الامين الطلبة ، مفهوم الحجاج عند بيرلمان ، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، ج2 ، ص 181

[20] محمد سالم محمد الامين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 108

[21] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص87.

2- الحجاج من وجهة نظر ميشال مايير:

تناولنا سابقا نظرية بيرلمان وأفكاره في الحجاج التي تهتم بالطابع الاشكالي التساؤلي غير الحتمي للمعطيات الحجاجية ، ومن هذا الاطار سنتطرق الى الفيلسوف البلجيكي ميشال مايير واقامته لنظرية بلاغية أساسها فكرة التساؤل والمساءلة .

انّ التفكير عند ميشال مايير « يعني طرح الاسئلة و القدرة على الاستشكال » [22]. بمعنى أن هذا المفكر يرى أن الوصول الى أي موضوع هو السؤال الجوهري وهذا مانستنبطه من كتابه "المنطق ، اللغة، والحجاج "حيث يؤكد فكرة المطابقة بين المساءلة والاشكال قائلا: « وبصفة عامة فانّ السؤال و المشكل يتماهيان ، واذا رغبتم في تعريف سيكولوجي قلنا انّ كلّ سؤال هو حاجز أو صعوبة أو ضرورة اختيار، وبالتالي فهو نداء الى اتخاذ قرار » [23] .هنا يقصد انّ السؤال يشبه الاشكال ، و التعريف هو انّ كلّ سؤال حجاجي يحمل اشكالا فكريا . كما انّ اختلاف الاسئلة عن الأجوبة يسميه مايير « الاختلاف الاشكالي » [24] . بمعنى أنّ التفكير الانساني هو حلقة من الاختلافات للأسئلة و الاجوبة.

إنّ اعتماد المساءلة في الفكر هي « تمنح للمعرفة ميزة التعدد ، فالسؤال يولد خيارات متعددة في الجواب ، وهذا الأخير ليس ناجزا قادرا بل هو امتدادات لا تفتأ تنفتح وتتطور ، وتنتج البدائل ، لذلك فوحده الاستشكال يمنح للثقافة المعاصرة تعدد المعاني» [25] يعني أنّ المساءلة هي الانتقال من الذات الى الاخر (المتلقي) مع تعدد للمعاني الاجوبة .

كما يشير مايير على أنّ قيام الحجاج يكون على قسمين : « صريح وضمني وعند غيره من الحجاجيين المهتمين بقضايا الخطاب ، هو الذي يجعله ذا صبغة حوارية أي مسرحا تتحاور على ركحه الاطراف وتتفاوض ، وآية ذلك أنّ الكلام بانقسامه عند التخاطب الى صريح وضمني ، يكون نصفه للمتكم وهو النصف المصرح به ، ونصفه للسامع وهو النصف الضمني »[26]. وهنا يبن لنا أنّ الحجاج قائم على ما هو مصرح من الكلام أي ظاهره و ما هو ضمني أي غير المصرح .

وزيادة على ما سبق نجد أن ميشال يربط اللغة والاستشكال في مشروعه مما يجعل من «استعمال اللغة معالجة »[27]. أي أنّ اللغة تعتبر حلا وعلاجا للمشاكل .وعالج كذلك علاقة البلاغة بالحجاج « وهما على بعد

---

[22] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع و المناظرة ، ص105

[23] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص135

[24] المرجع السابق ، ص105.

[25] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص106.

[26] عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، دار الفارابي ، ط1 ، بيروت لبنان ، 2001 ، ص37

[27] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع و المناظرة ، ص106.

مسافة واحدة انطلاقا من تحليله لفكرتين أساسيتين: بنية الصور البلاغية ثم العلاقات الخطابية »[28]. بمعنى أن استراتيجية الحجاج يحكمها الطابع المجازي و العلاقات الخطابية التي أساسها التواصل .

وفي ما يخص « بنية الصورة البلاغية نجد انّ مايير يعطيها دورا كبيرا في جذب السامع وتحريك خياله حتى يستوعب الأفكار والصور المقدمة اليه ومن أهمها المجاز ، اذ هو الذي يخلف المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره ، وهو الى ذلك طريقة التعبير عن الاهواء و الانفعالات والمشاعر التي هي صور من الانسان ، مثلما يكون المجاز صورة من الاسلوب »[29]. وهذا يدل على أنّه يولي اهتماما كبيرا بالصورة البلاغية في تحريك الذات للمتلقي من أجل الاقناع .

أما " العلاقات الخطابية " فهي مبنية على التواصل الانساني ، فقد استند مايير على الارث الارسطي وعلى اسهامات بيرلمان وحددها : بالايتوس : خصال الخطيب واخلاقه ، و الباتوس : المشاعر و الاحاسيس للجمهور ، و اللوغوس : المتعلق بشكل الخطاب للاستمالة والتاثير . وعليه فانّ مايير قد «اختزل هذه في العلاقة الجدلية بين المتكلم والمخاطب : تلك العلاقة التي ينبغي أن تكون ذات أسس عقلية ، فكرية، بحيث تكون للخطيب طاقة تأثيرية من جهة ، وثقافة عميقة ، ووعي بمستويات مخاطبيه واهدافهم من جهة ثانية ، اذ بهذه المعرفة وذلك الوعي يستطيع المتكلم صياغة التساؤلات الجوهرية الحجاجية التي يستدعيها المقام »[30] . هنا يوضح ضرورة الوعي والمعرفة الفكرية للخطيب لإفراز التساؤلات الحجاجية الملائمة لكل المواقف سواء لتقاربها أو لتناقضها .

ولمايير تصورات أخرى وراء ظاهر السؤال وهي ذات أبعاد ثلاثة : « تداولية من حيث بحثها في ظروف انجاز الخطاب وآلياته ، وتأويلية من حيث علاقة السؤال بالجواب ، وما يتطلبه من تأويل للمكونات كل منهما وروافده المغذية له ، وبلاغية من حيث ربطه اياها بالحجاج، وفتحه لهذا الأخير على مختلف وسائل الاتصال الكائنة اليوم وكذا الممكنة »[31] . ويقصد بالتداولية هي اوجه استعمال الخطاب سواء للاعجاب أو الاقناع ، امّا التأويلية هي أنّه كلما تعددت الاسئلة و الاجوبة كلما توسع التأويل ، أخيرا البلاغة مرتبطة بالحجاج الذي لا يشتغل الا بالتواصل و الاتصال بين الناس .

ومنه نستنتج أنّ مايير اهتم بمجال الحجـــاج و البلاغة و اللغة والمنطق ، فكلها جاءت ضمن اطار فلسفي جعلته يتميــز عن اراء غيره من الباحثين .

---

28 محمد سالم محمد الأمين الطلبة ،الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص136.
29 المرجع نفسه ، ص136.
30 محمد سالم محمد الامين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص138.
31 المرجع نفسه ،ص138.

3- مفهوم الحجاج عند ديكرو و انسكومبر:

لقد تعارضت نظرية الحجـــاج في اللغة مع الكثير من النظريات والتصورات و الزوايـــــا الحجاجية سواء في النظرية الكلاسيكيــة أو البلاغة الحديثة .

تعود نظرية الحجاج في اللغة الى كل من ازوالد ديكرو ، وجون انسكومبر اللذان يؤكدان على أنّ الحجاج يكمن داخل اللغة دون سواها ، والحديث عن هذه النظرية يستوجب علينا الوقوف عند مؤلفاتهما خاصة " كتاب الحجاج". وتعد هذه النظرية التي وضع اسسها ديكرو منذ 1973 « نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية، و بإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوافر عليها المتكلم ، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما ، تمكنه من تحقيق بعض الاهداف الحجاجية ، ثم أنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مفادها: إننا نتكلم عامة بقصد التأثير »[32] . و يعني انّ هذه النظري أساسها قائم على الأدوات اللغوية للمرسل في إلقاء خطابه قصد التأثير.

كما أنها تبين لنا أنّ « اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية و بعبارة أخرى ، هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها » [33] . أي أنّ اللغة تحمل في طياتها بعدا حجاجيا كامنا جوهريا في بنيتها الداخلية للأقوال. وقد وضح كذلك أنّ «الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتتابع و ترتابط على نحو دقيق ، فتكون بعضها حججا ، تدعم وتثبت بعضها الآخر ، وأنّ المتكلم يجعل قولا ما حجة لقول آخر» [34] . أي أنّ الحجاج هو تقديم الحجج للإثبات و استنتاج لنتيجة مصرح بها أو غير مصرح بها . ومنه نجد أنّ نظرية الحجاج في اللغة انبثقت من أعماق نظرية الأفعال الكلامية التي وضع أسسها أوستين و سيرل ،حيث قام بتطوير أفكارهما واقترح اضافة فعلين لغويين، فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج .

يرى الباحثان أنّ التداولية ، لا توجد إلّا مدمجة في الدلالة و ذلك أنّ « مجال البحث عندهما هو الجزء التداولي في الدلالــة لا يكون موضوع البحـث ، و بيان الدلالة التداوليـة المسجلة في أبنيـة اللغـة و توضيح شروط استعمالها الممكن »[35] . بمعنى أن التداولية المدمجة في الدلالة ، تبحث عن الجوانب التداولية داخل بنية اللغة نفسها .فهي« ليست مهمة اللغة الإخبار فقط ، و ليست مرصودة لوصف الأشياء ، و تمثيل الواقع فحسب و لكنها تحقق أعمالا لغوية »[36] أي أن اللغة ذات قوة لتحديد المواقف و توضيح الحالات و المقاصد.

---

32 أبو بكر العزاوي ، الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه و مجالاته ، حافظ اسماعيلي علوي ، ج1 ، عالم الكتب الحديث ، اربد الأردن ،2010 ،ص56.

33 المرجع نفسه ، ص56.

34 سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي ، ص22.

35 شكري مبخوث ، الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم ، اشراف حمادي صمود ، جامعة الآداب و الفنون ، تونس 1 ، كلية الآداب منوبة ، ص351.

36 عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ،ص96.

انّ الحجاج هو تقديم الحجج و الأدلة المؤدية الى نتيجة معينة ، و هو يتمثل « في انجاز تسلسلات إنجازية داخل خطاب »[37]. أي أنّ الحجاج في اللغة هو انتاج متواليات من الأقوال ، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية و بعضها الآخر بمثابة النتائج . كما استطاع ديكرو أن « أن يميز بين الاستدلال و الحجاج لأنهما ينتميان الى نظامين جدّ مختلفين ، نظام ما نسميه عادة بالمنطق ، و نظام الخطاب » [38]. أي أن الأقوال التي يتكون منها الاستدلال مستقلة بعضها عن بعض ، أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال الموجودة في الخطاب .

و عليه نجد أن نظريـة الحجاج « تنهـض على جملـة من المفاهيم تفسـر اشتغالها و هي : العلاقـة الحجاجيـة و المواضع الحجاجية و الاتجاه الحجاجي و القوة الحجاجية و السلم الحجاجي . »[39] أي أنّ نظرية الحجاج تقوم على العلاقات و المواضع و الاتجاهات و القوة و السلالم الحجاجية

أ/ العلاقة الحجاجية :

إن الحجاج في هذه النظرية علاقة دلالية تربط بين الأقوال بحيث « يقوم الاشتغال الحجاجي على تقديم المتكلم لقول معين بغير حجة ، يستهدف حمل المخاطب على القبول بقول آخر، يعد نتيجة سواء كانت صريحة أو ضمنية » [40]. أي أنّ العلاقة الموجودة بين الأقوال (الحجج) و النتائج هي علاقة حجاجية خطابية لا يضبطها الاستلزام المنطقي بل تحكمها المواضع الحجاجية .

ب/ المواضع الحجاجية :

إن المواضع شرط أساسي في الحجاج ، فقد اهتم ديكرو بها كثيرا فلا تخلو أية عملية حجاجية منه كونه يحقق الانسجام بين طرفي الحوار لتبرير وضعية ما أو موقف أو فعل .« و هو الأمر الذي يعني أن كل علاقة حجاجية تتطلب وجود موضـع بين الحجـة و النتيجة أي مسارا مبررا يعتمد في الانتقال الحجاجي » [41]. أي أن العلاقة الحجاجية تتطلب وجود موضع بين الحجة و النتيجة. و أن « المواضع طابع تدرجي ، اذ لها اشكال تتحدد بأقل

---

[37] المرجع نفسه ،ص98.

[38] أبو بكر العزاوي ، الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه و مجالاته ، حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ،ج1 ، اربد الاردن ، 2010 ،ص57.

[39] المرجع السابق ، ص98

[40] ينظر ، عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ص98.

[41] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ص99.

أو أكثر ضمن منطقة حجاجية محددة » [42]. هنا قد حدد ديكرو مفهوم المواضع من خلال أشكالها بين أكثر و رمزه (+) و أقل رمزه (–) و اختيار المواضع يعني اختيار اتجاه حجاجي معين .

ج/ الاتجاه الحجاجي :

اذا كـان الحجـاج يقتضي تسلسلات خطابية معينة و أشكـال من التتابع تأدي الى استنتاجات ، فإنّ الاتجاه الحجاجي « يعني اسناد اتجاه معين لقول ما بغاية بلوغ نتائج محددة ، و لا يخفى أن هذا التوجيه الذي يوسع أو يضيق الاحتمالات الحجاجية ليقودها في اتجاه معين تحدده البنية اللغوية للخطاب » [43]. يقصد أن الاتجاه الحجاجي يفرز مجموعة من الاحتمالات تحددها البنية اللغوية للخطاب أو السياق . و الاتجاه الحجاجي يتضمن قرائن حجاجية و هي نوعان : العوامل الحجاجية و الروابط الحجاجية .

1- العوامل الحجاجية :

تتمثل في « عناصر لغوية اسنادية نحوية أو معجمية تربط بين مكونات القول الواحد كالحصر ،النفي ، الشرط ... وظيفتها حصر الامكانات الحجاجية لمحتوى الملفوظات و تحويلها » [44].يقصد بالعناصر اللغوية الاسنادية: الحصر ، النفي ، الاستثناء (الواو ، الفاء، لكن ، اذن ...)، و النحوية : حروف التعليل ، و المعجمية حروف الاستئناف(بعض ، كل ، جميع ...)، كل هذه العناصر لها دور فعال في تحقيق الوظيفة الحجاجية .

2- الروابط الحجاجية :

تتمثل في كونها « مكونات لغوية تداولية تربط بين قولين أو أكثر داخلين في استراتجيةحجاجية واحدة ،بحيث تسمح بالربط بيـــن المتغيرات الحجاجيـــة و هي صنفان : روابط مدرجة للحجـــج مثل (لأنّ ، لكن) ، و روابـــط مدرجـة للنتائـــج مثل (إذن ،أخيرا ...) » [45] . تتمركز هذه الروابط في الربط بين وحدتين دلاليتين أو أكثر و قد يربط بين عناصر غير متجانسة .

د – القوة الحجاجية :

---

[42] شكري مبخوث ، نظرية الحجاج في اللغة ، ص380.
[43] المرجع السابق ،ص99.
[44] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ص100.
[45] المرجع نفسه ، ص100.

إنّ الحجج المنتمية للقسم الحجاجي «تتفاوت لأنها ترتبط فيم بينها بعلاقة تراتب، ففيها حجج قوية وحجج ضعيفة » [46]. بمعنى أنه في القسم الحجاجي نجد التدرج في الحجج ، منها القوية ومنها الضعيفة . ومن هنا قام ديكرو الى تمثيل هذه العلاقة ضمن ما سماه بالسلم الحجاجي .

هـ- السلم الحجاجي :

يقول ديكرو: « إنّ أي حقل حجاجي ينطوي على علاقة ترتيبية للحجج نسميه سلما حجاجيا » [47]. بمعنى أن هذه الحجج قد تكون متفاوتة في درجة قوتها فتشكل لنا السلالم الحجاجية .حيث تنطلق نظرية السلالم الحجاجية عند شكري مبخوت من « إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول (الحجة) (ق) ونتيجة (ن) ومعنى التلازم هنا هو أنّ الحجة لا تكون حجة بالنسبة للمتكلم، الا بإضافتها الى النتيجة مع الإشارة الى أنّ النتيجة قد يصرح بها و قد تبقى ضمنية » [48]. بمعنى ان الحجة مرتبطة بالنتيجة سواء كانت مصرح بها أو ضمنية .

ويمكن أن نرمز للسلم الحجاجي كالأتي : « د

ج

ب

ن= النتيجة

ب، ج ، د حجج و أدلة تخدم النتيجة "ن" » [49]

[46] المرجع نفسه ، ص101.
[47] المرجع نفسه ، ص101.
[48] شكري مبخوث ، نظرية الحجاج في اللغة ، ص363.
[49] أبو بكر العزاوي ، الحجاج في اللغة ، ص59

فالسلم الحجاجي هو « فئة حجاجية موجهة و يتسم السلم الحجاجي بالسمتين الاتيتين » [50].

- كل قول يرد في درجة ما ، من السلم يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة الى (ن) .
- إذا كان القول (ب) يؤدي الى نتيجة (ن) فهذا يستلزم أنّ (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة ، يؤدي اليها والعكس غير صحيح .

حدّد طه عبد الرحمن السلم الحجاجي انطلاقا من إسهامات ديكرو السلم الحجاجي بكونه « مجموعة غير فارغة من الأقوال ، مزودة بعلاقة ترتيبية » [51] .أي أنّ السلم الحجاجي عدد من الحجج و الاقوال ، تترتب من الحجة الضعيفة الى الحجة القوية .

وعليه فإنّ نظرية الحجاج في اللغة عند ديكرو و انسكومبر ، تحصر الحجاج داخل اللغة فقط من طرف المخاطب بواسطة الحجج المستعملة داخل ابنية الخطاب بشكل صريح أو ضمني.

تقنيات الخطاب الحجاجي عند بيرلمان وتيتكا:

كا بينا منذ قبل على أن شايم بيرلمان يعدّ رائدا النّظرية الحجاجيّة ، و أوّل من استخدم مصطلح البلاغة الجديدة ، حيث ألمّ بقضايا الحجاج و تطرّق إلى أهمّ التّقنيات الحجاجيّة و الآليات الإقناعية القائمة على طرائق الوصل(procédés de liaisons) ، و القائمة على طرائق الفصل(procédés de dissociation) .

أ/ طرائـــق الوصـــــــل :(procédés de liaisons)

لقد عرف بيرلمان و تيتكا الحجاج بتعريفات عدة في مواضع مختلفة أهمها هو أنّ نظرية الحجاج يتلخص في « دراسة تقنيات الخطاب التّي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التّسليم بم يعرض عليها من أطروحات ، وأن تزيد في درجة ذلك التسليم »[52]يعني أنّ هذه التّقنيات ترمي إلى التأثير في المتلقي واقناعه من خلال القضايا والأطروحات .

يقصد بيرلمان بطرق الوصل « ما يتم به فهم الخطط الّتي تقرّب بين العناصر المتباعدة في الأصل ، لتمنح فرصة توحيدها من أجل تنظيمها ، وكذلك تقويم كلّ منها بواسطة الأخرى سلبا أو ايجابا »[53]. بمعنى أنّها تقوم على الآليات التي تقرّب بين العناصر المتابينة في البنيّة الحجاجية من أجل توحيدها وتماسكها وترابطها.

---

[50] المرجع نفسه ، ص60.
[51] عبد اللطيف عادل ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ص101.
[52] عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن الكريم ، ص 27
[53] عبد الهادي بن ظافر الشهري ،استراتيجيات الخطاب ، ص 477

و قدحصر الباحثان هذه « الأشكال في ثلاثة أنواع من الحجج ، هي الحجج شبه المنطقية التي تستمد طاقتها الإقناعية في مشابهتها للطرائق الشّكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة ، و الحجج المؤسسة هي بنية الواقع من قبيل الربط السّببي و حجة السّلطة ، و الحجج المؤسّسة لبنية الواقع شأن المثل و الشاهد والتّمثيل و الاستعارة »[54].أيّ أنّ طرائق الوصل مقسّمة على عدّة حجج منها : الحجج شبه منطقية و الحجج المؤسّسة على بنية الواقع و الحجج المؤسّسة لبنية الواقع وتتمثّل فيما يلي :

1/ الحجج شبه المنطقيّة :(les arguments quasi-logiques)

تستمد الحجج شبه المنطقية « قوتها الاقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية (Formelle) و المنطقيّة و الرياضيّة في البرهنة ، لكن هي تشبهها فحسب و ليست هي إيّاها ، إذ في هذه الحجج ما يثير الاعتراض»[55]. أيّ أنّها تعتمد على المنطق الرياضي و البرهاني بالتقريب دون أن تساويه وهذا ما يتعارض مع مفهومها . كما تعتمد الحجج شبه المنطقيّة على بعض « البنى المنطقية مثل التّناقض (Contradiction) و التّماثل التّام أو الجزئي (Identité totale ou patielle) ، و قانون التّعديّة (la transitivité.)

كما تعتمد على العلاقات الرّياضيّة مثل علاقة الجزء بالكل و الأصغر بالأكبر و علاقة التوتّر و غيرها »[56] . بمعنى أنّ الحجج شبه منطقية تستمدّ قوتّها الإقناعيّة من خلال بعض المبادىء المنطقيّة و يمكن تفصيلها كالأتي :

أ/ الحجج التي تعتمد البنى المنطقية :

قسّم بيرلمان هذه الحجج الى مجموعة من الاقسام :

- التناقض و عدم الاتفاق :(Incopatibilitém)

و يقصد بالتّناقض(Contradiction)« هو أنّ تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى و نقض لها »[57] . بمعنى أنّ هناك قضية تنفي قضيّة أخرى ، فلا يمكن جمعهما . أمّا التعارض هو« اجتماع

[54] عبد الله صولة ، المرجع السابق ، ص 32 .

[55] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص 42.

[56] المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

[57] المرجع نفسه ، ص 43

حكمين متناقضين في فريضة أو خطاب كما يمثل في اختيار فرضيتين لإقصاء غير اللائقة منهما بالمقام »[58] .أيّ أنّ التّعارض مرتبط بالمقام ، لاختيار إحدى الحكم و إقصاء الأخر .

- التّماثل التّام أو الجزئي : (L'identité dans l'argumentation)

تقتصر هذه الحجة على «التّعريف الّذي يكون فيه المعرّف و المعرّف متماثلين لفظا ، الأمر الّذي يجعلنا نعتبر اللّفظ الثّاني محمولا على المجاز»[59] بمعنى أننّا نعرف مفهومه بتعريف مماثل ومتطابق لفظا . و هذا الضرب من التعريف «شائع في خطابنا اليومي كأن يقول أحدنا الدّنيا هي الدّنيا ، مقدّما بذلك تعريف يفتقر الى الصّرامة المنطقيّة و إلى وضوح طرفيه ، فالدّنيا قد تفهم على أنّها الحياة بملذّاتها و مشاكلها، كما قد تحيل على الخداع و الاغراء و الفتنة ، و مع ذلك فإنّ التّماثل الظاهر يصعب دفعه »[60]و هذا يعني أنّ التّماثل يستخدم في خطاباتنا اليومية ، و لكن مضمون طرفيه مختلف .

- الحجة القائمة على العلاقة التبادلية : (Règle de réciprocité)

تقتضي الحجة القائمة على العلاقة التبادلية « مبدأ التماثل قاعدة في التعامل مع المتماثلين ، تتمثل في العدالة أيّ في التّعامل مع العناصر المنتمية إلى صنف واحد بكيفية واحدة ، ولذا نتحدث عن المبادلة أو التبادل وهي علاقة منطقية خالصة .»[61]وهنا يقصد التعامل مع قضيتين متماثلتين من نفس الصنف بالعدل.كما تتمثل « في محاولة المواءمة بين الحجج العكسيّة »[62] أيّ أنّ هناك تبادل عكسي على وضعيتين متماثلتين.

- حجج التّعديـة :(Arguments de transitivité)

عرّفاها على أنّها تقوم على «استنتاج علاقات انطلاقا من توظيف قيمة عنصر ثالث ، يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني ، ويضرب لذلك " عدوّ عدوّي صديقي " ، وهو أنّ " صديق عدويّ

---

[58] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص128

[59] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ،الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 128

[60] سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي ، ص 200

[61] المرجع نفسه ، 201

[62] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، المرجع السابق ، ص 129

عدويّ " »[63] . وهي وجود علاقة تعديّة بين طرفين أو أكثر . و الواقع أنّ« التعديّة خاصيّة تعود إليها أصناف كثيرة من الحجج نجدها فعلا بطريقة خفيّة وبأثواب مختلفة : تعديّة بواسطة علاقة تساو أو تفوّق أو تضمين أو اشتمال ... »[64].أيّ أنّ تعديّة الحجج مختلفة و متنوعة و بطرق شتّى .

- الحجج شبه منطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية :

يقوم فيها الحجاج على « إدماج جزء في كلّ على اعتبار أنّ الأوّل مندمج في الثّاني و يكون هذا الاندماج والارتباط مأخوذين من جهة نظر كميّة .»[65]. بمعنى أنّه يشكّل علاقة رياضيّة ، يكون فيها كلّ يشتمل جزء و يتضمّنه من النّاحية الكميّة.

و أيضا « تقسيم كلّ إلى أجزائه المكوّنة له كي يتسنّى للمحاجج توظيف تلك الأجزاء و تحميلها الشحنة الاقناعيّة التي كانت لها مجتمعة ، وعلى المتكلّم عند استخدامه هذا النّوع الحرص على أنّ يكون تعداده للأجزاء شاملا .»[66] و هو اعتبار أنّ كلّ أشمل من جزء حتى يتضمن للخطيب اقناع المتكلّم مع ضرورة شموليّة الأجزاء.

حرص بيرلمان على تأسيس الحجج على بنيّة الواقع كونها تستخدم في الرّبط بين الأحكام وجعلها حجاجا قائما على الاتصال وعرفها بما يلي :

ب/ الحجج المؤسسة على بنية الواقع :(les arguments basés sur la structure du réel)

تتمثل الحجج المؤسّسة على بنية الواقع في كونها حجج « لا تعتمد على المنطق وانّما تتأسس على التّجربة وعلاقات حاضرة بين الأشياء المكوّنة للعالم ، فالحجاج ما عاد افتراضا و تضمينا بل أصبح تفسيرا و توضيحا ، تفسيرا للأحداث و الوقائع وتوضيحا للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع و أشيائه .»[67] أيّ أنّها تستمد قوتها الحجاجية من الواقع و العلاقات الاتّصالية و التّي تتمثّل فيم يلي :

- الاتصال التتابعي و الحجة البراغماتية:

---

[63] المرجع نفسه ، ص 129

[64] سامية الدريدي ، المرجع السابق ، ص 204

[65] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص129.

[66] المرجع نفسه ، نفس الصفحة.

[67] سامية الدريدي ،الحجاج في الشعر العربي ، ص214.

يكون الاتّصال التتابعي « بين ظاهرة ما و بين نتائجها أو مسبباتها و الاتصال التواجدي الذي يكون بين شخص وبين أعماله و عموما بيت الجوهر و تجلياته . »[68] أي أنّ الاتصال التتابعي يكون بالربط بين السبب و النتائج و التواجدي هو الربط بين الشخص و جوهره .

ومن وجوه الاتصال التتابعي نجد : حجج التبذير ، و حجج الاتجاه ، و الوصل السببي و الحجاج .

- الوصل السببي و الحجاج :

له ثلاثة ضروب وهي :

« الضّرب الأوّل : هو حجاج يرمي إلى الربط بين حديثين متتابعين بواسطة رابط سببي

الضّرب الثّاني : هو حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبب أحداثه و أدّى إليه .

الضّرب الثّالث: هو حجاج يرمي إلى التكهّن بما سينجرّ عن حدث ما من نتائج .»[69].

هنا يقصد أنّ الحجاج ينطلق من النّتائج ليصل إلى الأسباب و الأحداث و يعتمد على التكهّن لو توفر السّبب.

- حجة التبذير :

تقوم حجة التبذير « على الاتّصال و التتابع ، وإن لم تكن ليعتمد فيها أساسا على النّتيجة »[70] . هي متعلقة بضرورة التّتابع معتمدة على الأسباب .

- حجة الاتّجاه :

تقوم حجة الاتجاه أساسا على فكرة « التّحذير من مغبّة اتباع سياسة المراحل التّنازلية »[71]يعني أنّ هي التّحذير من سلسلة التّنازلات التي تؤدّي إلى الاستسلام .

ومن وجوه الاتصال التواجدي نجد: الشخص و أعماله ،حجة السلطة ، الاتّصال الرمزي .

- الشّخص و أعماله :

---

[68] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص49.

[69] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج، ص50.

[70] المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

[71] المرجع نفسه ، نفس الصفحة.

و تتمثّل في كون أنّ « الشّخص هو مجمل المعلوم من أعماله أيّ بتعبير أدّق هو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشّخص ، و بين أعماله التّي هي تجليّات ذلك الجوهر »[72]. أيّ أنّ أعمال الشّخص و أفعاله تساهم في الكشف عن جوهره و أفكاره .

- حجة السّلطة :

تكتسب حجّة السّلطة « من سلطة قائلة ومن مكانته وقيمته »[73]. و تتمثّل في الحجج المتنوعّة التي تستمد قوتها من هيبة الشّخص و سلطته . وتختلف و تتعدد تعددا كبيرا فقد تكون « بالإجماع أو الرأي العام ، أو العلماء أو الفلاسفة أو الأنبياء ، وقد تكون هذه السّلطة غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدّين أو الكتاب المقدس »[74] . بمعنى أنّ السّلطات التّي يتمّ الاعتماد عليها في الحجاج قد تكون شخصيّة أو غير شخصيّة .

- الاتّصال الرّمزي :

يتمثّل الاتّصال الرّمزي في « العلاقات التّي هي شكل آخر من أشكال الواقع ، تؤسّس بدورها على الانتماء ، ولكنّه انتماء اجتماعي أو ثقافي لذلك تتغير الرموز بتغير الأوساط الاجتماعية و البيئات الثّقافية »[75]. بمعنى أنّ للرمز دلالات مربوطة بنوعيّة الاستخدام حسب الفئة و البيئة سواءً كانت اجتماعية أو ثقافية أو غيرها .

ج/ الحجج المؤسّسة لبنية الواقع :

تقوم الحجج المؤسّسة لبنية الواقع على مستويين أساسيين هما : تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة كالمثل ، و ما يقوم على استخدام التّمثيل .

- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة :

يكون تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة و هي « المثل التي تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة الخاصّة ، التي جيء بالمثل لدعمها و تكريسها »[76] و يقصد أنّ المحاجة تدعم بالمثل لتقوية قضيّة ما تكون محلّ خلاف ، فيؤتى بهذه المثل للتثبيت و الترسيخ . و كذلك من هذه الحالات الخاصة البيّنة أو التبيين أو الاستشهاد

---

[72] المرجع نفسه ، ص51

[73] محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص131

[74] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص53.

[75] سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي ، ص236.

[76] عبد الله صولة ، المرجع السابق ، ص54.

الذّي « يقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة و ذلك بتقديم حالات خاصّة توضح القول ذا الطّابع العام ، و تقوّي حضور هذا القول في الذّهن ، و على هذا فإنّ الاستشهاد يؤتى به للتوضيح »[77]. بمعنى أنّ الاستشهاد يوضح و يقوّي درجة التّصديق لدى المتلقي و يكثف حضور الأفكار في الذّهن .

و نجد أيضا النّموذج و عكس النّموذج و هو« ضرب خاص من المثال ، يعرفه " اوليفي روبول" بكونه المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده »[78].بمعنى أنّه نوع من المثال الذي يظهر بمظهر الاقتداء و النّسج على منواله . و منه يتضّح لنا أنّ « أنسب المجالات لتوظيف النموذج ، مجال للتوجيه و القيادة ، توجيه المتلقي إلى سلوك معيّن و قيادته نحو موقف محدّد »[79] . أيّ أنّ وظيفة النموذج تكمن في مجال اختيار توجيه المتلقي حسب الموقف أو المقام المعيّن .

كما تقوم على استخدام التّمثيل« استخداما حجاجيا لأنّه في الحقيقة ليس قائما على علاقة تشابه ، و انّما هو تشابه علاقة »[80]. يقصد أنّ التمثيل يعتمد على تشابه العلاقات بين العناصر و ليس علاقة مشابهة بينهما .

وقد بيّن بيرلمان على أنّ « التمثيل في الحجاج يختلف عنه في الابداع ، ففي حين لا شيء ، يمنع من أن يطول التّمثيل و يمتدّ في مجال الابداع ، فالتمثيل في مجال الحجاج يلتزم بحدّ معيّن و إلا فقد طاقته الاقناعية و أنّ إطالة التّمثيل تكون أحيانا لغاية أن تثبت صحته ، لكن تلك الإطالة قد تجعله عرضة لتجريح المخاطب »[81] .بمعنى أنّ الطّاقة و القوّة الاقناعية تكمن في التزام التّمثيل بمجال معين و إلاّ أصبح عرضة للإهانة و التجريح .

ومنه نستنتج أنّ تعدّد الحجج و تنوعها في طرائق الاتّصال ، من حجج شبه منطقية مؤسّسة على المنطق و الرياضيّات و قدرتها على الاقناع ، و حجج مؤسّسة على بنية الواقع و ضروبها و حجج مؤسّسة لبنية الواقع و استخدام الحالات الخاصّة بكلّ أجزائها ،كلّها تحمل المتلقي على الاذعان أو زيادة اذعانه في أيّ خطاب .

ب/ الطرائق الانفصالية في الحجاج :(procédés de dissociation)

بناءً على ما تقدّم من الطّرائق الاتّصالية التي تعمل على الوصل بين العناصر ، اعتمد بيرلمان كذلك تقنيّة أخرى و هي الطّرائق الانفصاليّة التي تقوم على الفصل بين عناصر الموضوع الواحد .

---

77 عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص55.

78 سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي ، ص245.

79 المرجع نفسه ، نفس الصفحة

80 محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص132.

81 المرجع نفسه ، نفس الصفحة

يقصد بيرلمان بالطّرائق الانفصالية في الحجاج « تلك التّي تقتضي وجود وحدة بينها و مفهوم واحد لها فهي عناصر راجعة إلى اسم واحد يعينها و إنما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج .»[82] بمعنى أنّه يحدث الفصل بين عناصر المفهوم الواحد ، وذلك بكسر وحدتها لأسباب حجاجية .

كما يرى أنّ « الحجاج القائم على كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره المتضامن بعضها مع بعض ، مردّه إلى زوج الظاهر /الواقع أو الحقيقة (Apparence réalité) ، الظّاهر هو الحدّ الأوّل و الواقع هو الحدّ الثّاني »[83].بمعنى أنّ الفصل يكون بكسر وحدة المفهوم إلى أساسين هما الظّاهر و الواقع . إضافة إلى ذلك يرى بيرلمان« أنّ الحد الأوّل الذّي يوافق الظّاهر ، وهو ما يخطر بالذّهن ، و يدركه الفكر ، في حين أنّ الحدّ الثّاني لما كان نميزه لا يكون إلا في علاقته بالحدّ الأوّل و مقارنة به ، فإنّه لا يمكن أن يكون إلا نتيجة فصل تحدثه داخل الحدّ الأوّل نفسه سعيا منّا إلى القضاء على ما يمكن أن نلمحه في مظاهر الحدّ الأوّل ، هذا من تناقضات بينها توقظ فكرنا من غفلته عنها و انخداعه بها »[84]. بمعنى أنّنا نفصل الحدّ الأوّل /الظّاهر لأنّه يحمل المظاهرة الخادعة البعيدة عن الواقع ، وإبقاء الحدّ الثّاني الذّي يحمل الواقع و الحقيقة .

هذه الثنائية الظّاهر / الواقع أو الحقيقة قد ورد ما يعادلها في « الفلسفة الأفلاطونية على سبيل المثال بأزواج من قبيل : ظاهري / حقيقي ، رأي /علم ، معرفة حسية / معرفة عقلية ، جسم / روح ، تحول / اثبات ، كثرة/ وحدة ، إنساني / إلاهي»[85].

تتجلّى طرائق الفصل في الأقوال و الخطابات و ذلك عن طريق « الفصل بالجمل الاعتراضية ، أو بالأفعال الغير اليقينية ، يزعم ، يتوهم ، يظن ، يشك ... و الهدف منه إسقاط أحد العنصرين المفصولين ثم التأكيد على الباقي منهما »[86]. أيّ أنّ هذه المفاهيم و العبارات تستمدّ مظهرها الحجاجي بإسقاط أحد الحدّين و إبقاء المؤكّد و الحقيقي.

و يتمثّل دور الفصل الحجاجي « بواسطة الطّرائق اللّغوية و الكتابية ما ذكرنا منه ومالم نذكر في حمل السّامع أو القارئ على تمثل مظهرين اثنين للشيء الواحد أو المعطى الواحد مظهر زائف ظاهريّ براق من حيث أنّه أوّل ما

---

[82] عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن الكريم ، ص32.

[83] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص61.

[84] نفس المرجع ، ص62

[85] نفس المرجع ، نفس الصفحة.

[86] محمد سالم محمد الامين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص133.

تصادفه الحواس و يراه الفكر و المظهر هو الحقيقة عينها »[87]. بمعنى أنّ السّامع أو القارئ لابدّ له أن يهمل كلّ ما هو زائف و أن يتقبلّ كل ما يمثّل الحقيقة .

و قد اعتبر بيرلمان أنّ « أنجع الكلام في الحجاج ما جاء على قدر المقام »[88]. بمعنى أنّ المقام هو الذي يحدّد مصداقية الخطاب الحجاجي .

و عليه نستنتج أنّ طرائق الوصل تقنية تقوم على الفصل بين حدّي الزوج الظاهر / الحقيقي في المفهوم الواحد ، و هي من أهمّ ما اعتمد عليه بيرلمان في دراسة تقنيات الخطاب .

[87] عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص64.

[88] محمد سالم محمد الامين الطلبة ، المرجع السابق ، ص133.

البلاغة و الحجاج

نحاول هنا طرح قضية التداخل بين الحجاج و البلاغة عن طريق طرح السؤال التالي : هل العلاقة التي تربط بينهما هي علاقة تداخل أم علاقة تكامل أم علاقة احتواء؟ تلك هي الأسئلة التي سيَبني عليها البحث طريقه محاولا إيجاد الإجابة العلمية وفق ما تمليه المنهجية العلمية الجادة مستندا على ما طرح على بساط البحث العلمي في المدرستين العربية والغربية .

ماهية الحجاج : كثيرا ما نجد من البحوث التي عرفت الحجاج من الناحية اللغوية إلا إن هدفنا ههنا هو الربط بين التعريف اللغوي و التعريف الاصطلاحي للحجاج حتى يتسنى الخروج بمعنى جامع بين الوظيفة التي يقوم بها الحجاج داخل الخطاب ،و الأصل اللغوي لمعناه الإصطلاحي، فنقول:"حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي :غلبته بالحجج التي أدليتها[...] وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة و الحجة :الدليل والبرهان"[89].

و الذي يهمنا من ذلك المعنى الأخير ، أي منازعة الحجة و هذا الذي نجده في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[90] .

ومعنى حاج في هذا السياق: "خاصم،وهو فعل جاء على زنة المفاعلة،ولا يعرف ل(حاج) في الاستعمال فعل مجّرد دال على وقوع الخصام،ولا تعرف المادة التي اشتق منها"[91]، فنلاحظ التلازم بين المعنى اللغوي و الاصطلاحي بحيث أن "الحجاج هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[92].

و على هذا الأساس يُعرف الحجاج بأنه "فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك

---

[89] –. ابن منظور، لسان العرب،دار صادر ،بيروت،لبنان:ط 28– 1997 م،مج 2،مادة حجج،ص 27 ،

[90] –سورة البقرة الآية 258.

[91] –ابن عاشور ،تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر والتوزيع والإعلان،دت،ج 3،ص 32/31.

[92] –طه عبد الرحمن ،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،ط 1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب، 1998 ،ص 226.

جماعيا في إنشاء معرفة علمية إنشاءًا موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي، لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"[93] .

هذه الثنائية التي تميز الحجاج جعلته أكثر حضورا في العملية التواصلية مما ساعد المرسِل على إيصال أفكاره إلى المتلقي، و تجعله يذعن إلى ما طرح عليه من رسائل ، و أفكار ،و ذلك لأن الحجاج " عملية استدلال عقلي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم ، وتعتبر أن موضوعه درس تقنيات الخطاب التي تمكن المتكلم من تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"[94].

وزيادة على ما سبق ،فإن الخطاب الحجاجي يُعرف ،أيضا ،بأنه خطاب يستنفر كل الطاقات الإقناعية لدى المرسِل من أجل الدفاع عن وجهة نظر ليجعل المتلقي يذعن لها ، ومن هنا كان لزاما أن يُبنى الخطاب الحجاجي على جملة من العناصر يلخصها الجدول التالي:

العنصر الحجاجي	وظيفته
القضية	عرض الفكرة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة
الأطراف	المتحاورون حول القضية / المرسل و المتلقي (فردا واحد أو جمهور ..)
الحجج	عرض أدلة نقلية أو شواهد داعمة أو أمثلة من التاريخ أو الواقع أو شواهد من القرآن الكريم.
كيفية الإقناع	الاهتمام بالأساليب والصياغة مع التدرج في عرض البراهين.(سلالم الحجاج، الروابط و العوامل.)
النتيجة	الخلاصة إبداء الرأي بطريقة منطقية (النتيجة قد تكون ضمنية أو صريحة)

[93] – د.طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، البيضاء ، المغرب، [ط.3] ، 2007م ، ص.65.

[94] – شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة ،ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود،كلية الآداب ، منونة،د.ت، ص 59.

وزيادة على ما سبق ،فإن لغة الخطاب الحجاجي ،بما تتسم به من خصائص منطقية ، تتعالق مع ما يدعى بالمنطق الطبيعي (Logique naturelle) الذي ليس سوى "نسق من العمليات الذهنية التي تمكن فاعلا / متكلما في سياق ما من اقتراح تمثيلاته على متكلَّمٍ له بواسطة الخطاب "[95].

من أجل ذلك و غيره ،جعل كثير من الباحثين يُدْخلون الحجاج في اللغة ، و من هنا حُصر مفهوم الحجاج في التداولية المدمجة في التلازم بين الحجة و النتيجة ،فقد عرفه ديكرو في كتابه "الحجاج في اللغة" على النحو التالي: «يقوم متكلم ما بفعل الحجاج عندما يقدم قولا (ق1) (أو مجموعة أقوال) يفضي إلى التسليم بقول أخر (ق2) أو (مجموعة اقوال أخرى)"[96].

و على هذا ،فإن الحجاج عند ديكرو و أنسكومبر :" هو إنجاز لعملين هما: عمل التصريح بالحجة من ناحية و عمل الاستنتاج من ناحية أخرى سواء أكانت النتيجة مصرحا بها أم ضمنية "[97].

و مما سبق نستنتج ، و انطلاقا من تعريفه في التداولية المدمجة،بأن الحجاج ما هو إلا"علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب ،تَنْتج عن عمل المحاجة ، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية فلابد أن تتوفر في الحجة (ق1) شروط محددة حتى تؤدي إلى (ق2)،لذلك فإن الحجاج مسجل في بنية اللغة ذاتها ،و ليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للأقوال و لا بمعطيات بلاغية مقامية"[98].

و على هذا ؛حصرت التداولية المدمجة دراسة الجوانب التداولية في اللغة وحصرت أيضا الحجاج ،كما بيَّنا،داخل بنية اللغة ،و ذلك لما تتصف به اللغة من وظائف حجاجية تيسر توصيل الرسالة إلى المتلقي، لهذا يعتبر الحجاج

---

[95] – من المنطق إلى الحجاج ، حوار أجراه مع د.أبو بكر العزاوي حافيظ اسماعيلي علوي ، فكر ونقد، [ع.61] ن السنة السابعة ، سبتمبر 2004م ، ص.37.

[96] – Jean-Claude Ascombre et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue, Pierre mardaga, éditeur, Bruxelles, 1983, p8

[97]–Jean-Claude Ascombre et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue, Pierre mardaga, éditeur, Bruxelles, 1983, p11

[98] –شكري المبخوت، الحجاج في اللغة ،ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية 1،كلية الآداب منوبة،ص360-361.

،كما أسلفنا ، "فعالية تداولية جدلية ؛ فهو تداولي لان طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة "[99].

و انطلاقا من ذلك ، وجدنا ديكرو و أنسكومبر يميزان بين نوعين من الأفعال فعل المحاجة ،و فعل الاستدلال ، و ذلك لأن" الاستدلال و الحجاج ظاهرتان من مستويين مختلفين فأساس الاستدلال هو علاقة اعتقادات المتكلم بحالة الأشياء ،أي ترابط الأحداث و الوقائع في الكون ،أما الحجاج فهو موجود في الخطاب، و في الخطاب فحسب"[100].

فإذا كان فعل المحاجة مرتبط بالخطاب يجعله يختلف عن فعل الاستدلال ،و ذلك لأنَّ "عمل المحاجة باعتباره علاقة بين الحجة و نتيجة مختلف عن عمل الاستدلال ،فالمحاجة علاقة بين عملين لغويين لا بين قضيتين و هذه الخاصية التي تجعله مرتبطا باللغة الطبيعية "[101].

و في المخطط التالي تلخيص لما سبق ذكره عن تعريف الحجاج و إدماجه في اللغة:

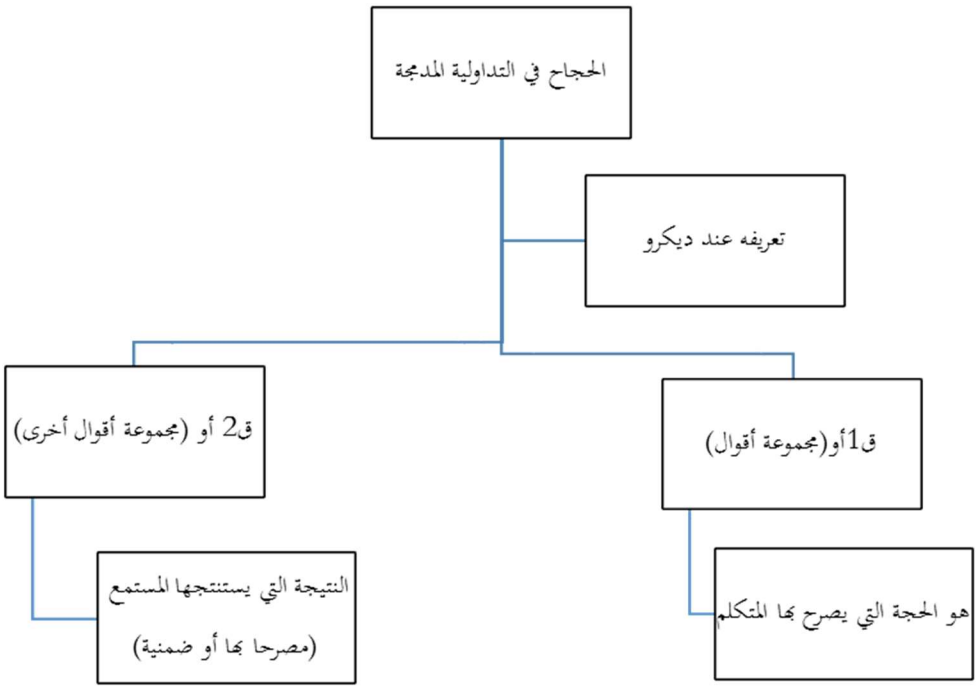

[99] – د.طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، البيضاء ، المغرب، [ط.3] ، 2007م ، ص.65.

[100] –شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص362.

[101] – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص363.

مقدمات الحجاج و منطلقاته: إن التغيرات التي تشهدها حياتنا اليوم من توفر وسائل التواصل المختلفة حتى استطاع الإنسان أن يخاطب غيره ،البعيد عنه، خلال ثواني رغم أن الآخر موجود في أمريكا و الأول في إفريقيا ،مثلا ،بل يستطيع أن يرى صورته و يلاحظ حركاته و انطبعات وجهه فكأن "الحياة اليومية والعائلية والسياسية توفر لنا كماً هائلا من أمثلة الحجاج البلاغي. إن أهمية هذه الأمثلة المنتمية إلى الحياة اليومية تكمن في التقارب الذي تسمح به مع الأمثلة التي يوفرها الحجاج الأكثر سموا عند الفلاسفة والقانونيين"[102] .

وهذا ما جعل المختصون في الحجاج و البلاغة على رأسهم بيرلمان الذي وسع من حدود الخطابة، حيث دمج الفلسفة والعلوم الإنسانية عامة، والتحاور اليومي، في نموذجه الموحد الذي أطلق عليه: البلاغة الجديدة "والواقع أن بيرلمان بهذا قد وقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام سواء النفسي الشخصي، أو الثنائي، أو الجماهيري، أو الشعري، أو خطاب المختصين في مجال القانون والعلوم الإنسانية "[103]. فلم تعد البلاغة ، بذلك، محصورة عنده في مخاطبة العوام والدهماء، بل اكتسحت جميع أنواع المخاطبين المختصين، الذين لا يمكنهم فهم الخطاب وتكوين رأي عن مضامينه: "دون التمهيد لذلك بتحمل عناء البحث الجاد"[104].

و مما سبق أضحت الخطط الحجاجية تستمد خصائصها وسماتها "من الحقل الذي تتحقق فيه و يمنحها الشرعية ،و قد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس ،و قيمهم أوالفكر و التفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا و تجريدا .و يترتب على ما سبق أن الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية ،و إنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق ، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية و القاعدية لكل حجاج ،أي عناصر الاستدلال و التدليل...حتى إن العديد من حقول المعرفة الإنسانية يسعى كل منها إلى ضم الحجاج إلى حظيرته الخاصة والاستفادة من إمكاناته .و هذا ما جعل مفهوم الحجاج يُطعم بمفاهيم ووظائف و تنظيرات مختلفة مازالت في تجديد مستمر"[105].

و لكن لا بأس في سبيل توضيح مقدمات الحجاج و منطلقاته ،أن نبين ما هي أهم المراحل التي يمر بها انتاج الحجاج حتى تتضح صورة ميلاد الخطاب الحجاجي عند المتكلم / المخاطِب حتى يبلغ صورته النهائية على شكل

---

[102] – http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html

[103] –– http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html

[104] – http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html

[105] –أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي،مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد يوليو 2001م ،ص 100.

خطاب متكامل العناصر ،و منسحمة فيما بينها ،و قد أشار أرسطو إلى مراحل انتاج القول الحجاجي [106] و التي سنجملها في المخطط التالي:

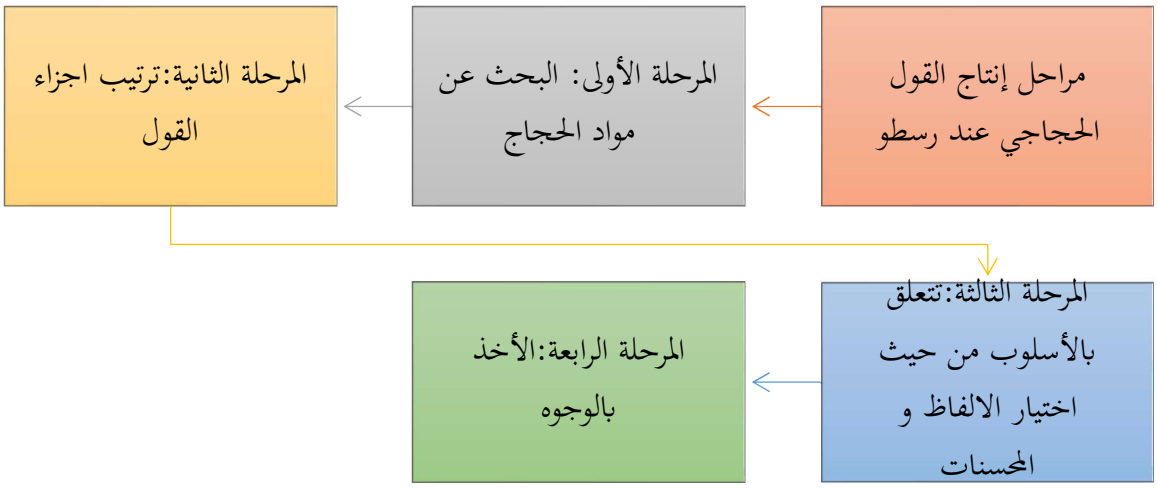

و كأن هذه المراحل تشير من ناحية أخرى إلى أهم الأطر الحجاجية التي تتحكم في بناء الخطاب الحجاجي ،و توجهه توجيها يجعله يؤدي وظيفته الإبلاغية ،و ذلك أن الحجاج لا يزدهر إلا حين تُفْتقد الأدوات اليقينية. هذا ما أشار إليه بارت لتحديد الأسباب التي دفعت إلى انهيار البلاغة[107].

استنتاجا مما سبق ، نفهم دور الخطيب في ضرورة الاهتمام بجمهوره حتى يختار لهم الحجج التي تجعلهم يؤيدون الفكرة أو ينفي عنهم ما كان في ذهنهم من أوهام حول الموضوع المطروح للنقاش الذي بفضله جاء الحجاج ،وعليه فإن "الخطيب الذي لا يلتفت إلى مطالب المستمع هو شخص أناني أو أنه لا يتحدث إلا مع نفسه ويتنصت إلى هلا وسه"[108].

وهذه الخاصية الحجاجية للخطاب جعلت كثيرا من الباحثين، المهتمين بتحليل العلمية التواصلية ، يعرفون البلاغة الجديدة بأنها:" حقل يُعنى بدراسة الخطاب الموجه نحو المخاطَب/المتلقي/الجمهور بمختلف أشكاله المتعددة، سواء

---

[106] –أرسطو ،الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي،بغداد :دار الشؤون الثقافية،1986م،ص193.

[107] – http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html

[108] – http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html

كان حشدا متجمِعا في ساحة عامة، أو في اجتماع لمختصين، أو كان خطابا موجها نحو فرد واحد أو نحو البشرية جمعاء؛ انه حقل يفحص حتى الحجج التي نوجهها إلى ذاتنا خلال حوار خاص بيننا وبين أنفسنا"[109].

البلاغة الجديدة و الحجاج:

ثمة تداخل كبير في التعريفات بينهما عند كثير من الباحثين ،و ذلك لأن المجددين للبلاغة الغربية، أمثال رولان بارت[110] وغيره، أرادوا أن تنتعش البلاغة بما تحويه من خاصية إقناعية التي يتسم بها الخطاب الحجاجي ،فلا يكون النص حجاجيا ، من وجهة نظر البلاغة الجديدة،إلا حين يحمل بذرة خلاف، تتضمن قصدا تأثيريا، مضمرا أو معلنا، بنية تحويل أو تعديل وجهة تفكير المخاطب، أو حمله على مزيد من موافقة داخل مسار تواصلي غير إلزامي"[111].

هذا المنحى الذي بني عليه الحجاج جعله يقتحم جميع العلوم بمختلف مشاربها المعرفية و المنهجية، لهذا فإن "بلاغة الحجاج حاضرة في الأدب و الفن، مثلما هي حاضرة في علم النفس والاجتماع و القانون و التجارة و الاقتصاد و السياسة و الإعلام بكل فروعه...إلخ،لأنها بلاغة تُوَظف في إحكام كل ما تصل إليه يدها الطويلة من علوم ومعارف".

وهذه الخاصية الإقناعية في البلاغة الجديدة جعلت اختيار الحجج يتحدد بعنصرين اثنين هما:

أولا:الانطلاق من المعطيات التي يمتلكها المتلقي حتى يتسنى إقناعه بشكل تراكمي للحجج.

ثانيا: مراعاة المقام، وذلك لأن المحاجة لا تؤتي أكلها إلا إذا اعتمدنا على حجج مضادة لحجج التي يُركز عليها الخصم في بناء خطابه.

---

109 -- Chaïm Perelman : Rhétorique et philosophie, avec Lucie Olbrechts-Tyteca, Paris, Presses Universitaires de France, 1952.

110 -لقد كتب سنةَ 1963 قائلاً: "ينبغي إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكيَّة بمفاهيم بنيويَّة، وسيكون – حينئذٍ – من الممكن وضْعُ بلاغةٍ عامَّة، أو لسانيَّة لدوالِّ التضمين، صالحة للصَّوت المنطوق، والصورة والإيماء.."
http://www.alukah.net/publications_competitions/0/36802/#ixzz52vU1m800

111 -- Michel Meyer : Qu'est-ce que l'argumentation?, Paris, Librairie Philosophique Vrin, 2005.

و من هنا ،كان موضوع نظرية الحجاج ، كما بين منظروها،"هو دراسة التقنيات الخطابية لإثارة أو زيادة الالتزام من العقول إلى الأطروحات المقدمة إلى اعتمادهم "[112]، و على هذا ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطا لا انفصام له ، و ذلك باعتماد تقنيات البلاغة في عملية الإقناع ،التي ذكرناها آنفا، حيث ركّز في ذلك بيرلمان على مبدأين أساسين في العملية التواصلية هما :القصد و المقام .

وهذان المبدءان يمكن الارتكاز عليهما، باعتبارهما معينا على تكوين كوثر منهجي، فيما يخص "تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين. وعلى الرغم من مميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية. بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضاه كل الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة "[113].

ولا يخفى على أحد، بأن الحجاج حصر في جملة من الأهداف هي:

1. الإقناع أي رصد كل الوسائل المسعفة والمعينة على جعل المتلقي يقبل الرسالة كمرحلة أولى.
2. والتأثير أي جعل المتلقي في المرتبة الثانية ينساق وراء مضامين الرسالة.
3. والتداول أي جعل اللغة وسيلة من وسائل ترابط بين طرفي العملية التواصلية.
4. والتواصل أي أن الحجاج وسيلة أساسية في ربط العلاقة بين المرسِل والمتلقي، علاقتها هدفها الأساسي هو التفاهم والتعاون والاشتراك.
5. والتخاطب أي أن اللغة بهذا تصبح تمارس وظيفتها الأساسية التي من أجلها وجدت عند الإنسان عموما.

---

112 – "L'objet de la théorie de l'argumentation est l'étude des techniques discursives permettant de provoquer ou d'accroître l'adhésion des esprits aux thèses qu'on présente à leur assentiment" (Perelman et Olbrechts-Tyteca 1970).

113 –– Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.

إلا إننا وجدنا بأن بيرلمان انتقل من الإقناع الذي ركز عليه أرسطو إلى الاقتناع حيث إن المجتمعات المعاصرة التي تبنت الديمقراطية منهجا في حياتها الشاملة تؤمن بالحرية لهذا وجدناها تميل إلى الاقتناع بدل الإقناع الجبري، فكأنها تجعل من بناء الخطاب يميل ميلا عظيما نحو مراعاة ظروف و وأحوال المتلقي حتى يقتنع بالرسالة ،و لهذا اهتم بيرلمان بالمتلقي بدل الملقي الذي كان يركز عليه أرسطو و البلاغة الغربية الكلاسيكية .

العوامل والروابط الحجاجية : تعتبر العوامل و الروابط في نظرية الحجاج و البلاغة الجديدة عنصران من عناصر التي تساعد على انسجام الخطاب حتى يصل إلى مبتغاه من توجيه المتلقي إلى النتيجة المرادة أو ما يسمى بالوجهة الحجاجية التي هي "محددة بالبنية اللغوية فإنها تبرز في مكونات متنوعة و مستويات مختلفة من هذه البنية فبعض هذه المكونات يتعلق بمجموع الجملة ،أي عامل حجاجي في عبارة ديكرو ،فيقيدها بعد أن يتم الإسناد فيها و من هذا النوع نجد:النفي و الاستثناء المفرغ و الشرط و الجزاء. و نجد مكونات أخرى ذات خصائص معجمية محددة، تؤثر في التعليق النحوي و تتوزع في مواضع متنوعة من الجملة ،و من هذه الوحدات المعجمية جروف الاستئناف بمختلف معانيها و الأسوار (بعض،كل ،جميع) و ما اتصل بوظائف نحوية مخصوصة ،كحروف التعليل أو تمحض لوظيفة من الوظائف قط و أبدا"[114].

و إذا أردنا أكثر تفصيلا فيما يخص تعريف العوامل و الروابط فإن كل "ما يربط بين الأقوال من عناصر نحوية مثل أدوات الاستثناء (الواو ، الفاء لكن إذن) ويسميه روابط حجاجية ،وأما النوع الثاني فهو ما يكون داخل القول الواحد من عناصر،تدخل مثل الحصر و النفي ، أو مكونات معجمية تحيل في الغالب غير مباشرة مثل منذ الظرفية و تقريبا و على القل و يسميه عوامل حجاجية"[115].

وعلى هذا فإن الروابط الحجاجية تختص بالربط بين عناصر الكلام ، وأما العوامل الحجاجية تختص بالجملة كلها .

وهذا يستدعي منا الحديث منهجيا عن نظرية السلالم الحجاجية حتى تكون النظرة كاملة متكاملة في هذا البحث ،وذلك بأنَّ نظرية السلالم الحجاجية تنطلق "من إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول الحجة(ق) ونتيجة (ن) ومعنى التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة للمتكلم ،إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها و قد تبقى ضمنية"[116].

---

[114] – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص377.

[115] – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص376-377.

[116] – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص363.

الحجج تُبنى وفق سلم ينطلق من الحجة الأضعف إلى الأقوى مثلما يوضحه هذا المخطط:

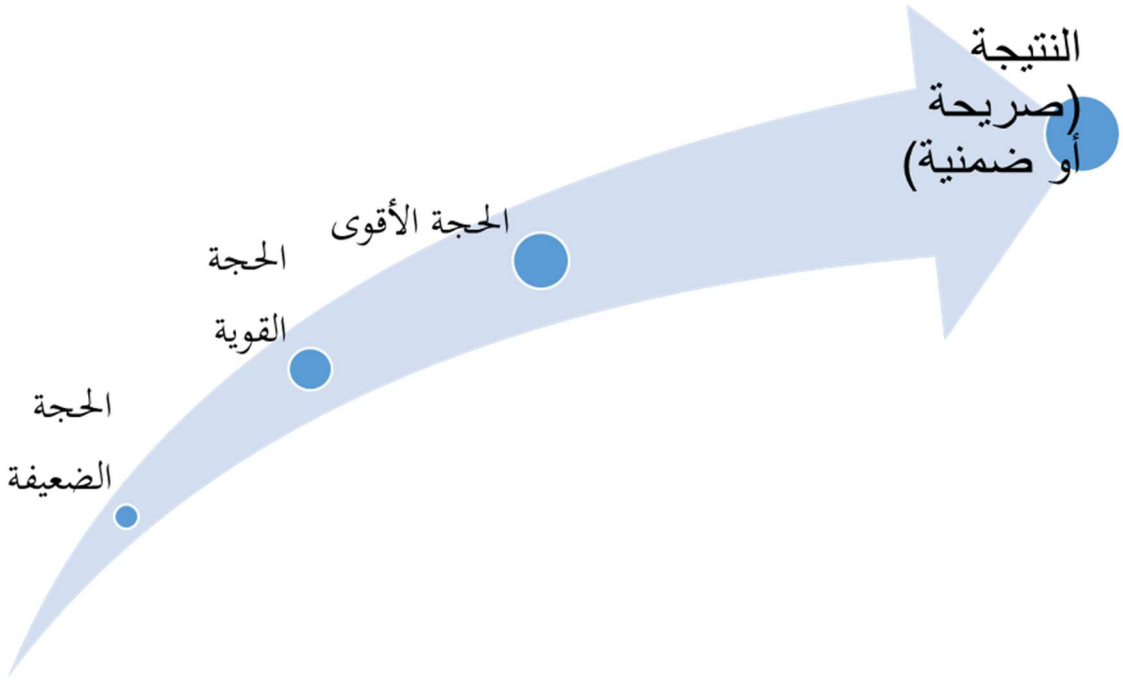

وعلى هذا تُبنى السلالم الحجاجية في الخطاب من مجموعة من الأقسام الحجاجية علما بأن كل قسم حجاجي يتكون من : ق+ق' ⟵ ن.

يقول ديكرو في ذلك :"تكون جملة (ق') أقوى من (ق) إذا كان كل قسم حجاجي يتضمن (ق) متضمنا أيضا (ق')" [117]، وإذا لم يتوفر هذا الشرط هناك شرط أخر" يكفي أن (ق') يؤدي إلى نتيجة (ن') أقوى من(ن)"[118].

و بما أن المجال ههنا لا يسمح بالتوسع أكثر في نظرية السلالم إلا إننا سنتحدث عن الموضع باعتباره شرطا أساسيا من شروط الحجاج إذ إنه "يمثل "مبدأ حجاجيا عاما من المبادئ التي يستعملها المتخاطبون ضمنيا للحمل على قبول النتيجة ما ، فالموضع فكرة مشتركة مقبولة لدى جمهور واسع ،و عليها يرتكز الاستدلال في اللغة"[119].

وفي تحديد ديكرو لمفهوم المواضع يمكن أن نستنتج ما يلي :

1. أن العلاقة الحجاجية تتطلب وجود موضع بين الحجة و النتيجة.

---

117 –Oswald Ducrot,1980,Les échelles argumentatives, Les éditions de minuit, PARIS ,P 20 .

118 – Oswald Ducrot, 1980, Les échelles argumentatives, Les éditions de minuit, PARIS, P 26.

119 – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص380.

2. أن للمواضع اشكالا تتحدد ب"أكثر" و "أقل" ضمن منطقة قوة محددة.

3. أن أضكال المواضع من خلال التأليف بين أكثر و(و رمزه+) زأقل (ورمز−) ألربعة هي : (+،+) (−،−)و (+،−)و(−،+)[120].

الخيال و الحجاج:

بعد الحديث عن كل ما يتعلق بالحجاج وشروط نجاحه ، ولو بصورة مقتضبة حسب أملته علينا طبيعة البحث، إلا إن ثمة سؤال يفرض نفسه ههنا مفاده هل هناك من علاقة بين الحجاج و الخيال ؟ أو بصورة أوضح إذا كان الحجاج يستند على المعطيات و الحجج اليقينية لإزاحة الخلاف أو اللبس الموجود بين المرسل و المرسل إليه فهل معنى ذلك أن نغفل الخيال في عملية المحاجة ؟

و نحن نعلم ،إجابة عن السؤال السابق ،بأن الخيال لا ينفك عن طبيعة الإنسان الفكرية حيث إنه" لا تفكر النفس بدون صور" [121] ،و قد وجدنا ابن سينا يظهر هذه القضية بجلاء في كتابه التعليقات حيث ذكر بأن "كل ما تعقله النفس مشوب بتخيل"[122] ،و هذا يجعل الحجاج يقبل التخييل حتى يتلائم مع طبيعة الإنسان التي هي مزيج مما هو منطقي و ما هو خيالي تصويري ،و ما الصور الشعرية التي نجدها في النصوص التي انتجها الإنسان عبر العصور و سيظل ينتجها ؛ بل إن النصوص السردية التي غزت الساحة الأدبية انتاجا كما ونوعا في زماننا هذا لخير دليل على العلاقة المتينة بين الحجاج و التخييل .

و لذلك كان الشعراء في الجاهلية،مثلا، ينظمون القصائد ،و يعلمون بأن لها تأثيراً كبيراً في حياة المتلقين "و من غير أن يكون الغرض بالمقول إيقاع اعتقاد البتة" [123] بينما الخطيب لا يلقي خطبته على المخاطبين إلا إذا كان الخطب الجلل يستدعي شحذ الهمم ،و كسب التأييد لهذا يعمل على إقناعهم بما هو « تصديق بالشيء مع اعتقاد أنه يمكن أن يكون له عناد وخلاف. "[124]

---

[120] – شكري المبخوت ،الحجاج في اللغة ،ص380.

[121] – أرسطو : في النفس، تر: إسحق بن حنين، مرا: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية،ط1، 1954،ص75.

[122] – ابن سينا: التعليقات، تح: د. عبد الرحمن بدوي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973،ص 109.

[123] – ابن سينا :المجموع أو الحكمة العروضية في معاني كتاب الشعر، تح: د. محمد سليم سالم، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، 1969، ص 15.

[124] – ابن سينا: المجموع أو الحكمة العروضية في معاني كتاب ريطوريقا، تح: د.محمد سليم سالم،مكتبة النهضة المصرية،ط1، 1950، ص 15.

وعلى ما سبق، يمكن أن نثبت قاعدة مهمة في مجال العلاقة بين الحجاج والتخييل هي أن« العمل المترتب على الحجاج ليس متوسلا إليه بالمغالطة والتلاعب بالأهواء والمناورة، وإنما هو عمل هيأ له العقل والتدبر والنظر."[125]

وقوة التخييل الحجاجية تطرق إليها عبد القاهر الجرجاني في كتابيه مبينا أهم خصائصها الفنية والإبداعية ، بل ذكر قوتها الإيحائية في بنائها الجمالي المحكم في شبكة من الصور الخيالية المنسجمة فيما بينها انسجاما جعلها تبدو كلوحة فنية رسمها رسام حاذق ، ومما التفت إليه عبد القاهر وحلله قصيدة ابن الرومي التي يقول فيها :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد

لم يخجل الورد المورّد لونه إلا وناجِلُه الفضيلةَ عاندُ

فصْلُ القضية أن هذا قائد زهرَ الرياض وأن هذا طاردُ

شتَّان بين اثنين هذا مُوعدٌ بتسلب الدنيا وهذا واعدُ

وإذا احْتَفَظْتَ به فأمتَعُ صاحبٍ بحياته لو أن حيَّاً خالدُ

للنرجس الفضلُ المبينُ وإن أبى آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ

من فضله عند الحِجَاج بأنه زهر ونَوْر وهو نبت واحدُ

يحكي مصابيحَ السماء وتارةً يحكي مصابيح الوجوه تَراصَدُ.[126]

ومما قاله عبد القاهر عن هذه القصيدة هو أن "ترتيب الصنعة في هذه القطعة، أنه عمل أولا على قلب طرفي التشبيه(...) فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه، وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة، ثم لما اطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته، طلب لذلك الخجل علة، فجعل علته أن فضل على النرجس، ووضع في منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها، فصار يتشور من ذلك، ويتخوف عيب العائب، وغميزة المستهزئ. ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط، حتى تصير كالهزء بمن قصد بها. ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر في سحر البيان، ما رأيت من وضع حجاج في شأن النرجس، وجهة استحقاقه الفضل على الورد، فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له»"[127].

---

[125] – R.AMOSSY :L'argumentation dans le discours, éd NATHAN, Paris, 2000 , P62.

[126] – ابن الرومي: الديوان، تح: د. حسين نصار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، د.ت،.2/643

[127] – عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ، ص 285.

و نلاحظ من خلال تحليل عبد القاهر لهذه القصيدة، وقد حلل شواهد كثيرة [128]، أنه تتبع الخاصية الحجاجية للصور التخييلية التي زخرت بها القصيدة ،و بين أنها تبنى على "الخطوات الثلاث التي تميز السلم الحجاجي، والتي تصوغ مقولاته في علاقة تراتبية"[129].

و يمكن أن نوضح هذه التراتبية الحجاجية لأسلوب التخييل في المخطط البياني التالي[130] :

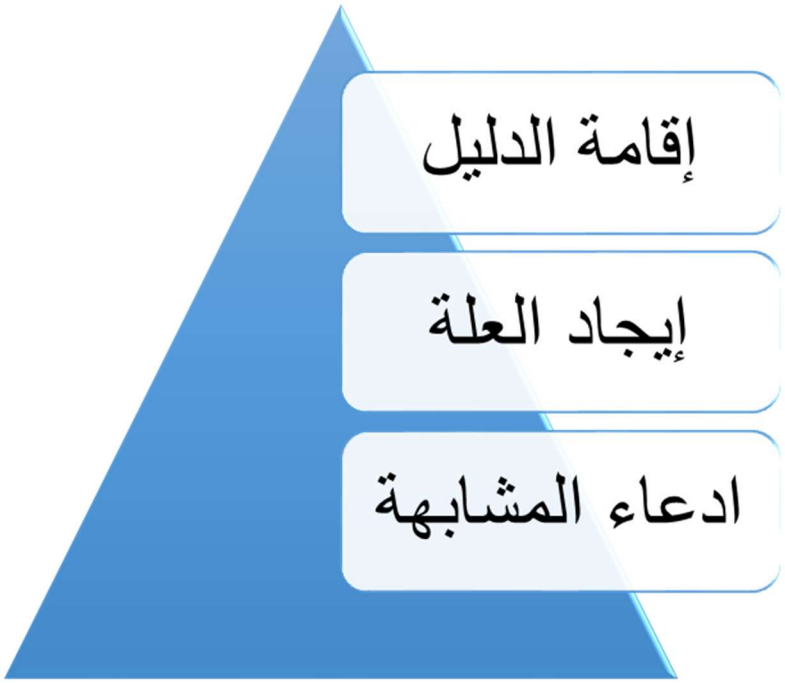

و قد بيّن ذلك من خلال تعليقه على بعض الأبيات الشعرية حيث يقول[131]: «كل واحد من هؤلاء قد خدع نفسه عن التشبيه وغالطها، وأوهم أن الذي جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر ،وحصل بحضرتهم على الحقيقة، ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى نصب له علة، و اقام عليها شاهدا(...)»[132].

استنباطا مما سبق، يمكن القول بأن الخطاب الأدبي ، سواء جاء في صورة خطاب شعري كما رأينا أو غيره،لا يستطيع أن يبنى بعيدا عن الحجاج الذي يرتكز على التخييل لأنه خاصية من خصائص التفكير البشري بكل

---

[128] – ينظر تلك الشواهد بالمصدر نفسه، ص 286–295.

[129] – أبو بكر العزاوي ،"نحو مقاربة، حجاجية الاستعارة"، ص 79 .ضمن مجلة المناظرة، الرباط، س 2، ع 4، 1991.

[130] – المرجع نفسه،ص ن.

[131] – أنظر تلك الأبيات لدى عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 289–290.

[132] – المصدر نفسه، ص 290.

مستوياته لأنها:" لا تتخلص أبدا من الهالة التخييلية بالكامل. كما أن كل عقلانية وكل نظام منطقي يحملان في ذاتهما أوهامهما الخاصة"[133].

و خلاصة الأمر فإن عملية التفاعل الإيجابي مع الخطابات ،ذات الخصوصية المشار إليه سابقا، فإنها تستغرق و تتطلب أربع مراحل متتالية هي:[134]

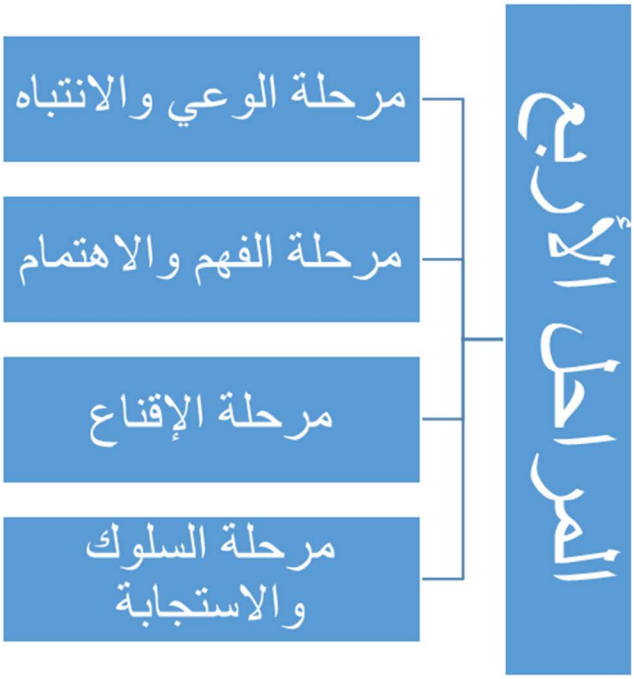

و هذه المراحل الأربع، كما بينها المخطط، تستهدف كل مرحلة منها إحداث تغير جزئي تدريجي فكل مرحلة توصلك إلى المرحلة التي بعدها حتى تبلغ غايتها،إذ إن المرحلة الأولى تركز أن يعي الجمهور المستهدف نوعية الخدمة وما يمكن أن نقدمه له، وأما المرحلة الثانية أن يفهم الجمهور المستهدف نوعية الخدمة.و أما المرحلة الثالثة أن يقنع الجمهور المستهدف بهذه الخدمة.و أما المرحلة الرابعة والأخيرة أن يتجه الجمهور المستهدف إلى التحرك نحو الخدمة.

و في ختام هذا المبحث فإن دراسات الحجاج في الخطاب تحصر في أمرين أثنين هما:

---

[133]– G.DURAND : Les structures Anthropologique de l'IMAGINAIRE, éd DUNOD, Paris, 11éme éd,1992, p 64-65.

[134] علي عجوة، (وأخرون): مقدمة ورسائل الاتصال،(القاهرة: مكتبة مصباح، ط2، 1991)،ص.ص.96.95.

1. القدرة البلاغية للحجاج في رسم وجهة نظر محددة و كذا في البنية المنطقية للخطاب الحجاجي التي تجعل المتلقي يصل إلى مرحلة الإقتناع بما يطرحه المرسل عليه من أفكار ووجهات نظر حتى تجعله يؤيده.

2. إن الحجاج يبني وفق منهجية منطقية مما يتطلب حدوث ثلاث عمليات هي:القبول و الحكم و المنطق.

حجاج البلاغة

الحديث عن البلاغة و حجاجيتها خاصة بعد انتقالها من لغة موضوع إلى لغة واصفة، يجعلنا ننظر إليها أنها أضحت"تلتقي مع مجموعة من المصطلحات الحديثة كتحليل الخطاب و الأسلوبية و القراءة"[135] وغيرها،و هذا يجعلنا ننظر إلى البلاغة أنها "ليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم ،بل تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع"[136].

و من هنا تعددت وظائفها و مساهماتها[137]؛بل هي "الأفق المنشود و الملتقى الضروري للتداولية و علم النص و السيميولوجيا ، و هي النموذج المؤمّل عليه للعمل الإنساني في إطاره الشامل الجديد"[138].

و على هذا فإن البلاغة بما تمتلكه من قوة إقناعية تأثيرية ، كما سنفصل في ذلك ،جعل كثيرا من الباحثين المحدثين يرون بأنه يجب أن نعطي للبلاغة المكانة التي هي أهل لها بل عليها أن تحتل المقام الأول "لتأخذ مكانها بين العلوم القديمة ،و ربما كانت هي التي تستحق أن تسترد وصف العلمية"[139] .

لهذا كثيرا ما نخطئ عندما نحصر البلاغة في "دراسة لجماليات اللغة فحسب،لأنها،فضلا عن هذا،هي فلسفة تفكير و ثقافة للمجتمع و أسلوبية للحوار ،و هذا سر اكتسابها تلك الطبيعة المزدوجة التي تجمع الآليتين الحجاجية و التفكيرية التأويلية على مستوى الملفوظ و المكتوب،إذ لم تعد تحليل النصوص فحسب،بل انتاجها أيضا"[140].

---

[135] –رولان بارت قراءة جديدة البلاغة القديمة ترجمة عمر أوكان المغرب إفريقيا الشرق ط1 1994مص7–8.

[136] –هنريش بليت، البلاغة و الأسلوبية،ترجمة و تقديم محمد العمري ، المغرب ،إفريقيا الشرق ،1999م،ص92.

[137] – صلاح فضل ،بلاغة الخطاب و علم النص، سلسلة عالم المعرفة،الكويت ، العدد 164،سنة 1992،ص250.

[138] – صلاح فضل ،بلاغة الخطاب و علم النص،ص251.

[139] –صلاح فضل ،بلاغة الخطاب و علم النص، ص179.

[140] –د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة،بحث في بلاغة النقد المعاصر،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1، 2008م،ص09.

كل ذلك و غيره ،يجعل الحديث عن البلاغة و وظائفها المتعددة التي سيظل الإنسان يكتشفها مرة بعد أخرى حديثا تفرضه العودة الجديدة للبلاغة في ظل ما تشهده المجتمعات من حراك فكري ،و إيديولوجي ،طلبا للحرية في إبداء الرأي و الرأي المضاد ،علما بأنه "على الرغم من التنوع في الوظائف و المشاغل البلاغية ،إلا إن المظهر الحجاجي(l'aspect argumentetif) يظل من ابرز خصائص الفكر البلاغي عبر مراحله القديمة و الوسيطة و الحديثة، وبالأخص المعاصرة"[141].

و كأن هذه المجتمعات ،بما استحدثت من آليات في التواصل ،و تقنيات متعددة متنوعة تيسر العملية التواصلية إن على مستوى المجتمع الواحد ،و بين مجتمعات متعددة متباعدة، "فتحت الأبواب أمام عودة الخطابة و رجوع وظيفة الإقناع و التأثير في صيغة لم تعرفها من قبل ،و أصبح الخطاب يعتمد في إنجاز تلك الوظيفة ،و إحداث التأثير ،و أساليب متنوعة ، منها ما يقوم على بلاغة الصورة ، ومنها ما يقوم على قدرة الخطاب الفائقة على التأثير ،لا بمنطوقه ،إنما بمفهومه و مُتضمنه،كما قوَّت المناقشة القائمة بين المستفيدين من استهلاك الآليات المرصودة لذلك،و أصبحت البلاغة قادرة ،لا فقط على التأثير و تحويل القول و الصورة فعلا و ممارسة،و إنما أصبحت متحكمة في أذواق الناس ،تساعد على صياغتها و إعطائها الوجهة التي تهيئها لقبول ما يُقترح عليها"[142].

هذه التهيئة لقبول ما يقترح على المتلقي إنما يُسِّرت بهذه القوة التأثيرية التي تحملها الوظيفة الحجاجية للبلاغة، التي جعلت "تمرير الأفكار و التصورات و الأخيلة التي نريد تمريرها على حساب ما هو قائم في ذهن المتلقي،و الغاية هي إبعاده عما كان يعمر ذهنه و إحلال ما نريد نحن مكانه،بتحريك الإعجاب، بما نعرض عليه،أو نخلق الصدمة أو الفتنة أو الإقناع"[143].

إذن نحن نتكلم ،باستغلال تقنيات الحجاج الكامنة في البلاغة، بقصد "دفع المخاطب إلى القيام بمناورات أو تمثلات مختلفة متعلقة بموضوع معين لكسب أو مضاعفة تعاطف المستمع بشأن الأطروحات المقترحة للحصول على موافقته"[144] .

---

[141] – د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة،ص11.

[142] –حمادي صمود،تجليات الخطاب البلاغي ،تونس:دار قرطاج للنشؤ،ط1، 1999م،ض133-135.

[143] – حمادي صمود،تجليات الخطاب البلاغي،ص 134.

[144] –Chaïm Perelman : Droit, morale et philosophie, Paris, Librairie Générale de Droit et de Jurisprudence, 1968.

و على هذا،كما أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني، كأن فنون البلاغة تستدعيها الملابسات المحيطة بالخطاب وشروط نجاحه ، فإنك على الجملة "لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ،حتى يكون المعنى هو الذي طلبه و استدعاه و ساق نحوه و حتى تجده لا تبتغي به بدلا،و لا تجد عنه حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه و أعلاه،و أحقه بالحسن و أولاه: ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه،أو ما هو لحسن ملاءمته ،و إن كان مطلوبا،بهذه المنزلة و في هذه الصورة "[145].

و كأن عبد القاهر الجرجاني يبيّن بأن للبلاغة وظائفاً متعددةً لا نستطيع أن نحصرها فقط في الجانب الجمالي التزييني ،و إنما جعلها تتسع لتشمل الجانب الحجاجي و غيره حتى يقول :"إن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزّ للعطف ،وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ،وأقضى له بغُرّ المواهب والمنائح ، وأَسْيَر على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر"[146]. و إن كان الأسلوب أو الفن البلاغي " ذمًّا كان مسُّهُ أوجع ، وميسه ألذع ، ووقعه أشد ، وحدُّه أحدّ ،وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألدّ وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ،ولغرب الغضب أفل ، وفي عقدالعقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث" [147].

وإن كان هذا الأسلوب البلاغي "وعظًا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلّي الغياية ، ويبصّر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفي الغليل "[148].

ومن هنا نفهم مما ذكره عبد القاهر ،بأن القوة الحجاجية للبيان تجعله "وسيلة أساسية من وسائل الإقناع، ولعل في اختلاف مستويات التلقي ما يؤكد هذه الصفة الحجاجية للخطاب البلاغي، وذلك يجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية، على اعتبار أن هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة التأثير من خلال قوتها الكلامية التي تتجلى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء وترابط العلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أبرز مظاهرها"[149].

---

[145] –عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان،تحقيق السيد محمد رشيد رضا،دار المعلرفة،بيروت–لبنان،ط1، 2002م، ص 18.

[146] –عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان،ص 97.

[147] ––عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان،98.

[148] ––عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان،99.

[149] –إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير،:مقاربة تداولية معرفية"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، المغرب، 2000، ص69.

النتيجة:

إن النتيجية التي نخلص إليها في هذا البحث ، أن الحجاج ما هو إلا وظيفة من وظائف البلاغة ، وعليه فليس "الحجاج علما/فنا يوازي البلاغة:بل هو ترسانة من الأساليب والأصوات يتم افتراضها من البلاغة(ومن غيرها،كالمنطق واللغة العادية...) ولذلك فمن اليسير اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب"[150].

و في هذا الإطار وجدنا البلاغة الجديدة في علاقتها بالحجاج «تهدف إلى التقنيات الخطابية ،وتسعى إلى إثارة النفوس وكسب العقول عبر عرض الحجج ،كما تهتم البلاغة الجديدة أيضا بالشروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب ،ثم يتطور كما تفحص الآثار الناجمة عن ذلك التطور"[151].

وخلاصة الخلاصة ،من خلال الآليات المبتكرة في زماننا هذا في تقنيات التواصل ،و هي في حركة مستمرة نحو التجديد و التطور ؛بل إننا نَتَعرَّض لهجمات (استفزازات) مستمرة و متكررة للتواصل بطرق متعددة، و متنافسة من أجل ربط عدد كبير من المتلقين بالعملية التواصلية لأهداف مختلفة و متنوعة ،كعرض بضاعة أو فكرة ...، و على هذا نستطيع أن نجزم أنه "لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل".[152]

---

[150] –صابر الحباشة،التداولية والحجاج،مداخل ونصوص ،صفحات للدراسات والنشر ،الطبعة الأولى، 2008 ،ص50.

[151] –صابر الحباشة،التداولية والحجاج،مداخل ونصوص ،صفحات للدراسات والنشر ،الطبعة الأولى، 2008 ،ص 17

[152] –الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عبد النبي ذاكر، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 02، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2011، ص: 07، وينظر كذلك: حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010، ص: 108

الحجة المغالطة في خطابات التواصل الاجتماعي

لا يخفى على الدارس على أن ما يصدر عن المرسل ،داخل العملية التواصلية وهي في حيز الاشتغال ،من لغة يصطلح عليها بالخطاب المنطوق الموجه إلى متلق متعدد أو معين " لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[153] أو تسليم بها أو الإذعان لها أو زيادة التأييد ،فالخطاب "هو كلام و /أو نصوص و /أو علامات أخرى تُتداول في سياق محدد ،و تنتمي إلى مجال نشاط إنساني معين"[154].

و من هنا فإن الملاحظ للخطابات في شتى الحقول ، وخاصة في وسائل التواصل الاجتماعي ، يلحظ على أنها تهدف إلى التأثير في المتلقي، و سوقه نحو توجه يرسمه المرسل انطلاقا من خلفيات متعددة ، فإن هذه الخطابات تتغذى من حجج مغالطة إذا ما عرضت على الحقيقة فإنها تتعرى .

إن أهداف المرسل عموما تتلخص في نقطتين أساسيتين هما : الإعلام أو التعبير من أجل إقناع المتلقي باعتماد الحجاج الصرف أو المغالطة ، ولا نقصد بالحجاج الصرف تلك الحجج المنطقية، و إنما نقصد الحجج الشبه منطقية لأن الحجاج لا يكون إلا في قضايا تحتمل الاعتراض ، وذلك أن نتائج الحجاج تُبنى على الاحتمال و ليس على اليقين.

---

[153] –طه عبد الرحمن ،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،ط 1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب، 1998 ،ص 226.

[154] –كيف نحلل التناص في الخطاب؟، ضمن كتاب (بلاغة الخطاب الديني) تحرير د. محمد مشبال. منشورات الاختلاف ودار الأمان، الجزائر والمغرب، 2015، ص 261–288.

و المخطط التالي يوضح لنا الحجاج و عناصر العملية التواصلية[155] :

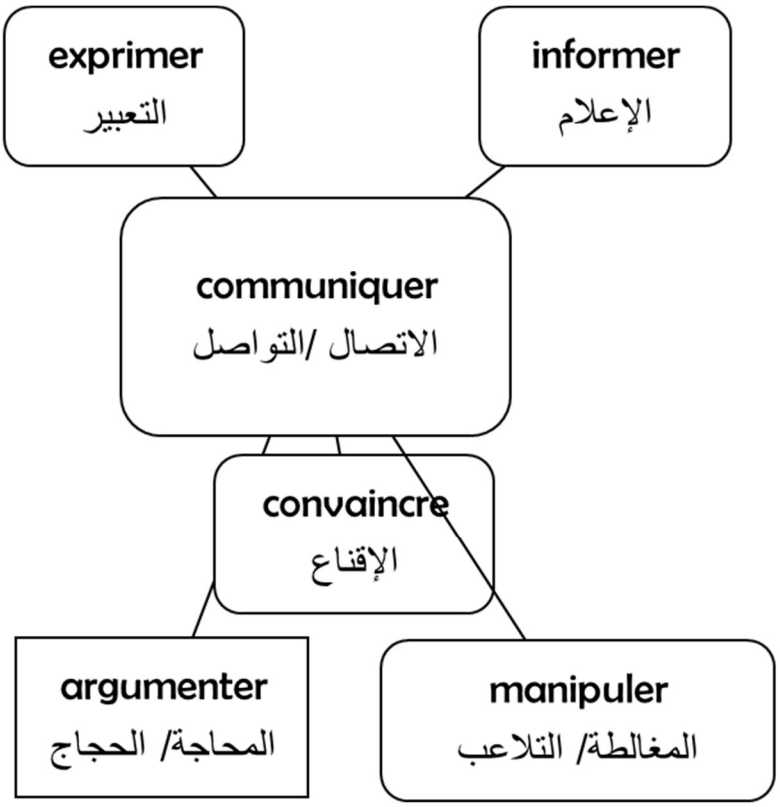

من هنا يتضح على أن حياتنا التواصلية مبنية على الحجاج المغالط في نصف كبير منها ،كأن المغالطة هي خبزنا اليومي و لغتنا الثانية و منطقنا الجديد،الذي يحتاج منا تريثا و مراجعة حتى نقف على الحقيقة لأن المغالطات هي عيوب تضعف الحجج. الحجج المضللة شائعة جدًا ويمكن أن تكون مقنعة في الاستخدام العام. قد تكون حتى (تأكيدات غير موثوقة غالبًا ما يتم طرحها بقناعة تجعلها تبدو وكأنها حقائق مثبتة). يتم استخدام المغالطات غير الرسمية بشكل كبير ومتكرر في وسائل الإعلام مثل التلفزيون والصحف. من المهم أن نفهم ما هي المغالطات بحيث يمكن للمرء أن يتعرف عليها ويكتشفها سواء في بحججه الخاصة أو بحجج الآخرين. إن تجنب المغالطات سيعزز قدرة الشخص على طرح حجج قوية.

مؤشرات الحجاج ثلاثة أنواع:

[155] –Philipe breton ,L'argumentation dans la communication(3e édition); Éditions La Découverte, Paris, 1996, 2001, 2003.p04.

مؤشرات لغوية : التأكيد –الحصر–النفي–الترجيح بلعل أو قد أو ربما...

مؤشرات منطقية: آليات الاستقراء من الجزء إلى الكل –الاستنباط من الكل إلى الجزء–المماثلة–التعليل–التوليد...

مؤشرات بلاغية: آليات بلاغية الاستعارة التشبيه الكناية

أنواع الحجج:

1. حجج عقلية:ترتكز على آليات منطقية
2. ... واقعية:تجريبية أو مشاهدة ...
3. ... نقلية : مستمدة من نصوص شفوية أو مكتوبة.

مصدر الحجج:

- السلطة
- المقدس
- المثل

وقد صنف مشال مايير (Michel Meyer) الخطابة إلى ثلاثة أنواع:

1 –الإيتوس : Ethos وخصه بالمخاطِب L'orateur وعلاقته بالمخاطَب L'auditoire ، وصيغته:" لديّ الجواب،يمكنك الوثوق "[156] .

2 –الباتوس : Pathos حدّده في العناصر التالية [157]:

–الأسئلة التي يطرحها المخاطَب.

–الانفعالات (les émotions) التي تحتوي على البراهين والأجوبة.

–الأهداف أو القيم (les valeurs) التي تحدد أمام أعينكم الأجوبة لهذه الأسئلة.

---

[156] –**Michel Meyer, la rhétorique, 1er éd, Paris,2004, P :22**

[157] P26

3- -اللوغوس : Logos يمكن أن يعبّر على الأسئلة والأجوبة مع الإبقاء على خصوصية كل واحد منهما.[158]

قد يكون من الصعب كشف ما إذا كانت الحجة مضللة، حيث تتألف الحجة من مجموعة اقسام متتالية يجب ان تكون صحيحة، والحجة التي تحتوي على عدة مراحل أو أجزاء قد تحتوي على مراحل صحيحة ومراحل خاطئة

الحجج المضللة عادة ما تكون ذات مظهر خادع بحيث تبدو صحيحة، قد يكون إدراك المغالطات في الحجج اليومية أمرًا صعبًا نظرًا لأن الحجج غالبًا ما تكون موجودة في أنماط خطابية تحجب الروابط المنطقية بين العبارات، قد تستغل المغالطات غير الرسمية أيضًا نقاط الضعف العاطفية أو الفكرية أو النفسية للجمهور،إن إدراك المغالطات يمكن أن يطور مهارات التفكير المنطقي لفضح الروابط الضعيفة بين المقدمات والاستنتاجات ويزيد من القدرة على التمييز بين ما يبدو أنه صحيح وما هو صحيح فعلًا.

وهذا ما عبر عنه المتنبي في إحدى قصائده مبينا دور المغالطة في تقويض الشخصية القوية ، وهدم الهمة فيها ،إذ إنها ترسل إلينا في رسائل تلبس لباس حسن النية و هي في باطنها شيء أخر :[159]

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَّرُومِ ❁ فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ (1)

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ ❁ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ (2

يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ ❁ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ (3)

وَكُلُّ شَجَاعةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي ❁ وَلا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ (4)

وَكَمْ مِّنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ❁ وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ (5)

وَلَكِنْ تَأْخُذُ الآذَانُ مِنْهُ ❁ عَلَى قَدَرِ القَرَائِحِ والعُلُومِ[160](6)

---

158 -p26

159 -المتنبي ،العَرْف الطَّيِّب،.436-434/1.

160 -- // الشَّرح // -

(1)غامَرْتَ: دَخَلْتَ في الغَمَرات، وهي: المهالك .وقوله: " في شَرَفٍ "؛ أي: في طَلَبِ شَرَفٍ؛ فحُذِفَ؛ للعِلْمِ بالمحذوف .ومَرُوم؛ أي: مطلوب .يقول: إذا خاطَرْتَ بنفسك في طلب الشَّرَف؛ فلا تقنَعْ باليسير منه.

(2)يُريد أنَّ الموت لا يصير حقيرًا بحقارة المطلب، ولا يعظم بعظمته، وإنَّما طعمه واحد في الحالَين، وإذا كانَ ذلك؛ فلا وَجْهَ للمخاطر، إلاَّ أن يقصد أسمى الأمور .

(3)أي: أنَّ الجبان يتقاعد عن اقتحام العظائم؛ عجزًا منه، وهو يظنُّ أنَّ ذلك عقلٌ، وإنَّما هي خديعة؛ يزيّنُها له لؤم طَبْعه؛

تطرح نظرية النقاش منهجًا مختلفًا لفهم وتصنيف المغالطات، تعتبر الحجة في هذا النهج بمثابة بروتوكول للتواصل بين الأفراد الذين يحاولون حل خلافاتهم، يتم تنظيم هذا البروتوكول من خلال قواعد تواصل معينة، لذا فإن انتهاكات هذه القواعد هي مغالطات.

يتم استخدام المغالطات بدلًا من المنطق الصحيح لطرح فكرة معينة وإقناع الطرف الآخر بها،تشمل المغالطات في وسائل الإعلام اليوم على سبيل المثال لا الحصر: الدعاية الموجهة (البروباغندا) والإعلان والسياسة وافتتاحات الصحف والعروض الإخبارية المعتمدة على آراء المجتمع [161].

أنواع الحجاج :

1-حجاج حسن النية 2-حجاج سوء النية

نعيش في مغالطات كثيرة تجذبنا هنا و هناك نتعلم الحجاج به نستطيع الرد على من يريد أن يغالطنا فالكفاءة الحجاجية تسعفنا على العيش بأمان في واقع مليء بالمغالطات .

أنواع الحجج المغالطة:

1. المصادرة على المطلوب : عندما يعرف الماء بالماء
2. مسرحية المسكين :المتسول ...يستدر الشفقة
3. تبييض الحائط : تهتم بالأشكال " قد تشتري كتابا فيه عنوان مثير و محتوى فارغ و قس على ذلك
4. مغالطة ساعي البريد : بدل ان نلوم الرسالة نلوم ساعي البريد

بما فيه من ضعف النَّفس، وصِغَر الهمَّة .

... (4)الشَّجاعة -كيفما كانَتْ-؛ تُغني صاحبَها، وتكفيه **مؤونة** الخسف والعار، ولكنَّ الشَّجاعة في الحكيم لا تُقاس بها الشَّجاعة في غيره؛ لأنَّها تكون حينئذٍ مقرونةً بالحزم؛ فتكون أبعد مِنَ الفشل ...

(5)الآفة: العاهة، والضَّمير للقول .

(6)القرائح: الطَّبائع .أي: كُلُّ سامعٍ يتناول من معاني الكلام على قدر سجيَّته وعلمه؛ فإنْ كانَ حاذِقًا؛ أحاطَ بفحواه، وعَلِمَ بصحَّته، وإنْ كانَ غَبِيًّا؛ خَفِيَ عليه المُراد منه؛ فأنكره، وعابه .

[161] –Pirie ،Madsen (2006). *How to Win Every Argumen*t: The Use and Abuse of Logi*c*. A&C Black .p 46

5. المنحدر الزلق: تؤدي الزيادة في الأجور إلى عجز في الميزانية ثم إلى شلل في الاقتصاد

6. مغالطة الرنجة الحمراء: يُنسب اسم المغالطة لحيلة كان يستخدمها المجرمون الفارون لتضليل كلاب الحراسة التي تتعقبهم، وذلك بسحب سمكة رنجة حمراء عبر مسار هروبهم، وبما أن هذا النوع من السمك له رائحة شديدة فانها تغطي على رائحة المجرمين فيصعب على الكلاب تمييز رائحتهم ، وهي مغالطة منطقية تتمثل بعرض بينات أو موضوعات أو أسباب جاذبة خارجة عن الموضوع لتشتيت انتباه الطرف (أو الاطراف) الآخر عن الموضوع الاصلي

7. مغالطة التفرد : خاصة في الإشهار

8. مغالطة التعميم المتسرع

9. مغالطة قياس قيمة المعرفة : تسونامي المعلومات

بعض الأمثلة على ذلك:

1. تحويل النقاش إلى قضايا بعيدة عن الجوهر عن طريق مغالطة (الرنجة الحمراء)

2. إهانة شخصية لإنسان ما.

3. افتراض نتائج النقاش مسبقًا وهو نوع من الاستدلال الدائري يدعى أيضًا (البدء من السؤال).

4. وجود قفزات في الاستدلال المنطقي.

5. تحديد سبب وتأثير وهمي.

6. التأكيد على أن الجميع يوافقون على أحد المواضيع بشكل مسبق.

7. خلق معضلة وهمية (مغالطة) يتم فيها تبسيط الموضوع بشكل كبير.

8. آاستخدام الحقائق بشكل انتقائي.

9. اجراء مقارنات كاذبة أو مضللة (مثل التكافؤ الخاطئ والتشبيه الخاطئ)

10. التعميم السريع غير المدروس (مغالطة التعميم المتسرع).

سلوكات التواصل غير اللفظي:

ومن الوسائل التي تعيين على تحليل العملية التواصلية زيادة على ما ذكر سابقا و هي تحليل التواصل غير اللفظي الذي يرتكز على مجموعة من السلوكيات يلخصها المخطط الآتي:

1. سلوكات تخص الحيز الشخصي : ترتبط بمعيار المباشرية الذي يشير إلى مسافة التقارب الجسدي بين الأشخاص وأثناء التواصل
2. السلوكات الجسدية: تشمل حركة الجسد و تعبيرات الوجه و التواصل البصري
3. السلوكات التي تخص استخدام الوقت: كمعرفة الأوقات المناسبة للتحول مع الآخر
4. العلامات الصوتية غير اللفظية:مثل النبر و التنغيم و حدة الصوت و درجة ارتفاعه أو خفوته.
5. الصمت : تختلف دلالة الصمت من ثقافة إلى أخرى فقد يعني عدم الاهتمام أو يعني الموافقة
6. سلوكات الملامسة: كأشكال التحية بالتقبيل و العناق و غيرها و تتباين الثقافات في تفسيرها
7. الملابس و المظهر الفيزيائي: تشمل مناسبة الملابس للسياق الذي يدور فيه الحوار و دلالات الألوان[162].

[162] – التواصل عبر الثقافات: أثر العلامات غير اللغوية في الحوار بين العرب والغرب، عماد عبد اللطيف. مجلة جسور المحكمة في اللسانيات والنقد الأدبي. مكتبة الآداب، القاهرة، عدد 1، (2011)، ص 160-169.

البلاغة وتحليل الخطاب

ظلت البلاغة تشغل حيّزا عظيما في حقول المعرفة الفلسفية و النقدية و الأدبية و اللغوية، على وجه الخصوص،منذ أرسطو، ومرورا بالدراسات العربية في عصورها الذهبية، وصولا إلى التيارات الأدبية الحديثة و المدارس اللغوية الحديثة.

و للبلاغة علاقة وطيدة بالنص الأدبي في شتى تمظهراته و تشكلاته الفنية والأدبية و التحليلية و اللغوية ، وفي هذا تَنْصب البلاغة لنفسها مقاما محمودا في الحقول المعرفية المختلفة.

و من هنا، وجدنا حازم القرطاجني يقول في تبيان مدى شساعة مجال البلاغة : "كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار ." (163)

فعملية الحفر في مجال بنيات النص الأدبي للوقوف على المعنى المخبوء تحت النسيج اللساني والصوتي، ستظل في صيرورة و ديمومة مادام أن هناك نصوصا تُرْصف و خطابات تُقال .

وقد عملت المدارس الأدبية و النقدية المختلفة على تكميل الرؤية، وفتح طرق التوسع في فهم النص وتحليله بإضافة نظريات و آليات نقدية و تقنية لخدمة المغزى العام من وراء التعامل مع النص الأدبي.

و صادف القارئ عبر العصور سيلا عرمرما من المصطلحات النقدية، نتجت عن هذا الصراع بين التيارات المتضاربة و المتناطحة. و من هنا، وقع هذا الخلط والاضطراب في بناء النسق البلاغي للخطاب الأدبي .

و هذا عائد إلى تغير هرم النسق المعرفي ،الذي يُغلِّب منهجا على سائر المناهج المسيرة للحركة العامة للحياة المعرفية و الثقافية ...

و هذا البحث يطرح جملة من الأسئلة المنهجية و المعرفية ،تتمحور حول الدرس البلاغي و قراءة النص الأدبي و سر تغير آليات تحليل الخطاب في الدراسات المختلفة.

---

163 – حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء .ص88 .

و هل يمكن أن تظهر بلاغة عامة تجمع بين معطيات البلاغة القديمة والبلاغة الجديدة في قراءة النص ؟ ولإثراء هذا الموضوع سنبحث، أيضا ،هل من علاقة بين البلاغة و الأسلوبية من جهة والبلاغة و علم النص "لسانيات النص" أو كما يسميه البعض البلاغة الجديدة من جهة أخرى؟

و تعود دوافعي في اختيار هذا الموضوع إلى عدة أسباب أهمها:

1. ظهور كتب كثيرة تحمل العنوان القديم متضمنة الجديد. من ذلك: البلاغة العامة، وبلاغة الشعر، لجماعة مي، وإمبراطورية البلاغة (قبل ذلك) ل بيرلمان، و بلاغة النص ...إلى غير ذلك من العناوين.

2. لم يعد رجوع البلاغة موضع جدال بين الدارسين سواء أولئك الذين نادوا بعودتها أو الذين لم يفعلوا ذلك، فالكل منخرط في البحث في أسباب هذا الغزو الجديد...

3. قلة الدراسات العربية في هذا المجال مع وجود مجهود معتبر في مجال الترجمة مثل :" البلاغة والبلاغة الجديدة" ل"فاسيلي" تر.الشرقاوي...

و على هذا ،وجب التطرق لهذا الموضوع معرفة كيفية عودة البلاغة، هل بشكلها القديم أم بشكل جديد أم بهما معا ؟.

و هذا العمل يهم كل دارس للأدب في أنساقه المتعددة و المتنوعة ، فهو يفرض نفسه كطرح يحاول الجمع بين القديم و الجديد، في بناء متكامل متحد لخدمة الغاية المعرفية التي نتوخاها من قراءة النص الأدبي قديمه و جديده.

الدرس البلاغي و العودة من جديد : البلاغة فن الخطاب الجيد ،"البلاغة نظام من القواعد،تقوم مهمته على التوجه في إنتاج النص الأدبي ،و هي نظام يتحقق في النص ،تؤثر على القارئ بإقناعه ، أو تؤثر على المتلقي في عملية الاتصال الأدبي."[164]

وفي هذا الإطار و تعميقا له، و في سياق محاولة تعريف البلاغة و تحديد موضوعها ،نستقطع فقرة من حوار حار بين سقراط و جورجياس في إحدى محاورات أفلاطون الشهيرة، له دلالة في صدد ما نحن فيه:

-سقراط: ما موضوع البلاغة؟

-جورجياس: الخطابات

-سقراط: أي خطابات يا جورجياس؟ هل تقصد بالخطابات، ذلك العلاج الذي يكتبه الطبيب ، وينبغي أن يتقيد به المريض ليكون في صحة جيدة.

-جورجياس: لا

-سقراط: إذن فالبلاغة لا تعنى بكل الخطابات.

-جورجياس:طبعا،ليس كل الخطابات"[165].

ومن هنا ندرك؛ بأن البلاغة تعني الخطاب المؤثر متعة و إفادة و إقناعا ، أي الخطاب البليغ الذي اجتمع فيه عناصر الجمال التعبيري و الإفادة المعرفية و جندت فيه أقوى الحجج لجلب المتلقي و إقناعه.

ولقد كان لعلم البلاغة فضلٌ كبير في بيان أساليب العرب، وتَراكيب لغتهم، وما تَمتاز به من قوَّةٍ وجمال؛ في اللفظ والمعنى، والعاطفة والخَيال؛ ممَّا أعان كثيرًا على فَهْم تُراثنا، وتقدير لُغتنا، وبَيان إعجاز كتابنا الكريم، بل إنَّ دراسة الإعجاز البياني وإدراكه كان الهدف الرئيس الذي من أجْله وُضِعَ علم البلاغة؛ وفي هذا يقول ابن خلدون: "واعلم أنَّ ثمرة هذا الفن، إنما هي فَهْم الإعجاز من القرآن"[166].

فالبلاغة العربيَّة على هذا دينية المنبت، قرآنية المصدر، درجتْ ونَمتْ في رحاب كتاب الله تعالى ، تستهدي آياته، وتتشرَّب معانيه، قبل أنْ تتناولَ الأدب العربي بوجْه عام.

---

[164] – أ.د/سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات، ص 22.

[165] –محمد مشبال ، البلاغة و الخطاب، منشورات الاختلاف،ط1، 2014م،الجزائر،ص282.

[166] – مقدمة ابن خلدون، باب البيان، ص521.

و من خلال تتبعنا الدقيق لمسارات البحث البلاغي عند العرب ،خلُصنا إلى أنّ الملاحظات الأسلوبية هي المصدر الأول للبلاغة العربية، حيث جُمعت تحت اسم البديع ومحاسن الكلام(ابن المعتز)، وأن الطموح إلى صياغة نظرية عامة للفهم والإفهام أو للبيان والتبيين(الجاحظ) هو المصدر الثاني الكبير للبلاغة العربية· و من هنا ، فإن للبلاغة العربية مهدين كبيرين أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة· ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته.[167]

و في هذا يقول حازم القرطاجني: "ولو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام ··· لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية"[168] و لهذا كله وغيره ،وجدنا أغلب التيارات النقدية الحديثة[169] تتجه إلى إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة، ولاسيما مكتسبات اللسانيات.

و لقد بنيتُ هذا البحثَ على إمكان هذه القراءة وجدواها فكان لها مكانها ودورها. ولاشك أن هذا التوجه يجد سندا له في الدراسات الغربية التي انطلقت منذ الستينات تؤرخ للبلاغة الغربية، أو تعيد قراءتها وتفسر فعاليتها مع بارت (تاريخ البلاغة) و جان كوهن و كبدي فاركا وجان مولينو و طامين...

ونظرا أيضا ، لعودة البلاغة إلى الواجهة ،إذ ها هو ذا "رولان بارث" زعيم المجددين نفسه يبحث للبلاغة القديمة عن فستان حديث، وعن شغل في شركات الإشهار (بلاغة الصورة). لقد كتب سنة 1963 قائلا: "ينبغي إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكية بمفاهيم بنيوية، وسيكون، حينئذ، من الممكن وضع بلاغة عامة أو لسانية لدوال التضمين، صالحة للصوت المنطوق، والصورة والإيماء.." [170]و ها هي ذي الصيحات تدعو إلى عودة البلاغة بصفتها "الإمبراطورية" ،التي هيمنت على حقول المعرفة النقدية و الأدبية في الحقب السوالف.

---

[167] – ينظر الدكتور محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ،دار افريقيا الشرق سنة 2005م ، ص 28 . ·29

[168] – حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 68.

169 –ينظر كتاب "البلاغة العربية الأصول وَالامتدادات"، محمد العُمَري ،الطبعة الأولى1998.

[170] –ر. بارت، بلاغة الصورة،نقله الشرقاوي في البلاغة القديمة، ص5.

ووجدنا بعض التعريفات اللسانية للغة تكرز على الوظيفة الإبلاغية للغة ،فقد عرف "أندري مارتيني " اللغة بأنها"أداة تبليغ يحصل على مقايسها تحليل لما يخبره الإنسان على خلاف بين جماعة و أخرى، و ينتهي هذا التحليل إلى وحدات ذات مضمون معنويّ،و صوت ملفوظ..."[171]وهذا التعريف يكتسي أهمية بالغة في الدرس اللساني الحديث.

و نحن مطالبون اليوم ،بصورة ملحة ،بإعادة الشرعية للدرس البلاغي ، انطلاقا من المفهوم النسقي لها، الذي يسعى إلى جعل البلاغة علما أعلى يشمل التخييل والحجاج، ويستوعب المفهومين معا من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها، ويوسّع منطقة التقاطع إلى أقصى حدّ ممكن· فقد حدث خلال التاريخ أن تقلّص البعد الفلسفي التداولي للبلاغة، وتوسّع البعد الأسلوبي حتى صار الموضوع الوحيد لها، فكانت نهضة البلاغة حديثا منصبّة على استرجاع البعد المفقود في تجاذب بين المجال الأدبي(حيث يهيمن التخييل) والمجال الفلسفي المنطقي من جهة، واللساني التداولي من جهة ثانية[(172)]

و قد دعا باحثون سابقون في مقولاتهم إلى(تجديد البلاغة العربية) قصد إحياء قواعدها و ربطها بما استحدث من بحوث في شتى المناهج النقدية التحليلة ، "أمثال الشيخ أمين الخولي و أحمد الشايب و أحمد الزيات و مصطفى صادق الرفاعي ،و كانت محاولاتهم الأولى بداية الربط الحقيقي بين الدرس البلاغي القديم ،و الدرس الأسلوبي الحديث" [(173)]. لأن البلاغة منذ قال القائل قولته بل و من قبلها و من بعدها إلى اليوم و الدرس البلاغي يموج بالحركة و التجديد فلا مسائله مستقرة و لا مناهجه تتوقف عن التجديد.

فمن المدارس العربية التي اهتمت بإحياء البلاغة المدرسة المصرية التي بدأت بإعادة "قراءة التراث البلاغي على ضوء المقولات النقدية المعاصرة"[174]؛وكان من أبرز هذه المحاولات كتاب بلاغة الخطاب و علم النص 1992م لصلاح فضل الذي "يعد من بواكير المصنفات في حقل الدراسات النقدية العربية المعاصرة التي تهتم ببلاغة الحجاج و برائدها بيرلمان"[175].

---

171 –ينظر– andre MARTINET ,Elements linguistiques generale ,P20

172 – ينظر كتاب "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"، الدكتور محمد العمري سنة 2005م بدار افريقيا الشرق.

173 –د.امحمد عبد المطلب،البلاغة العربية قراءة أخرى،الشركة العالمية للنشر،ط1 /1997م،ص 6.

174 –د.محمد سالم الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1/2008م،ص218.

175 –المرجع نفسه،ص220.

و أما المدرسة الأخرى فهي المدرسة المغاربية التي تطور عندها المشروع البلاغي الحديث إلى "مشروع نقدي معرفي هدفه تحديد شروط الحوار و المثاقفة مع الآخر،و رسم الموقع منه و ذلك بعد الوعي اللازم بتراثنا و صياغة المفاهيم المناسبة لأي عملية تواصلية مع الآخر"[176].

البلاغة و الأسلوبية

لقد لقيت دراسة الأسلوب في مباحث الإعجاز القرآني احتفاء عظيما في الدرس العربي ،منذ القرن الثاني الهجري ،التي استدعت ـ بالضرورة ـ ممن تعرضوا للتفسير أن يتفهموا مدلول لفظة "أسلوب "عند البحث المقارن بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من أساليب الكلام العربي، متخذين ذلك وسيلة لإثبات ظاهرة الإعجاز للقرآن الكريم. فقد كان لعلماء متقدمين كأبي عبيدة (ـ 210هـ) والأخفش سعيد بن مسعدة (ـ207هـ) والفراء (ـ 208هـ) الجهد الكبير في إثراء مفهوم الأسلوب في الشعر وجلاء أشكاله، رغم تباين الأهداف التي سعوا إليها، بين بلاغة الخطاب القرآني وإعجازه أو دفع طعون الملحدين في القرآن وعربيته.
و بالعودة إلى المعاجم العربية نجد الزبيدي،مثلا، يُعرف الأسلوب بأنه هو "السطر من النخيل و"الطريق" يأخذ فيه، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الوجه والمذهب، يقال هم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته وكلامه على أساليب حسنة، والأسلوب بالضم "الفن"، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه"(177)، ويذهب الفيروز أبادي نفس المذهب إلى أن "الأسلوب الطريق"(178)، وينعته الرازي بـ "الفن"(179). أما عند البلاغيين فإنّ الأسلوب في اعتقاد ابن طباطبا ـ كشأن "النساج الحاذق الذي يوفق وشيه بأحسن التوفيق ويسديه وينيره"(180) حتى يجلي نظمه في أحسن حلة، ولا يتأتى له ذلك إلا بالحذق في صناعة الأسلوب والتحكم في آلياته.

و لقد ألفينا النظرة إلى الأسلوب تتعمق في التراث البلاغي مع أطروحات عبد القاهر الجرجاني (ـ 471هـ)؛ إذ نجده يساوي بين الأسلوب والنظم، بل يجمع بينهما جمعا عبقريا ،لأن الأسلوب عنده لا ينفصل عن رؤيته للنظم، بل نجده يماثل بينهما من حيث إنهما يشكلان تنوعاً لغوياً خاصاً بكل مبدع يصدر عن وعي واختيار وفهم ، ومن

---

176 – المرجع نفسه،ص287.
177 – الزبيدي ،تاج العروس . 1/ 302.
178 – الفيروز أبادي ،القاموس المحيط ، . 1/ 86.
179 – الرازي ، مختار الصحاح ، ص130.
180 – ابن طباطبا، عيار الشعر،ص 11.

ثم يذهب عبد القاهر إلى أن الأسلوب ضرب من النظم وطريقة فيه.

و إذا كان الأسلوب ـ كذلك ـ يجب أن يتوخى فيه المبدع اللفظ لمقتضى التفرد الذاتيّ في انتقاء اللغة عن وعي وذلك بمراعاة حال المخاطب، فإن الجرجاني قد أضاف أصلاً أصيلاً إلى نظرية الأسلوب في البلاغة العربية القديمة، إذ جعل الأسلوب يقوم على الأصول العربية وقواعدها، فالنظم يمتنع معنى إذا لم ينضبط بالنحو، وذلك ما أسس له الجرجاني في دلائل الإعجاز بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ منها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"(181)،

وبذلك جعل عبد القاهر الجرجاني من النحو قاعدة لكل نظم، لا باعتباره أداة أسلوب ينتظم بها التركيب في نسقه الإعرابي العام، وإنما جعل منه ـ كذلك ـ مستفتحاً لما استغلق من المعنى؛ إذ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب مفتاحاً لها، و"أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه؛ والمقياس الذي لا يعرف صحيحاً من سقيم حتى يرجع إليه ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه"(182)، فإذا أدرك المبدع ذلك استقام له الأسلوب وأتاه أنى شاء.

و إذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن خلدون نجده يصرح بأن الأسلوب عند أهل الصناعة "عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القوالب التي يفرغ فيها، ولا يرجع على الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان؛ ولا باعتباره الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية"(183).

ويؤكد ابن خلدون في مقدمته ،أيضا، أن الوظيفة الشعرية أو الصناعة الشعرية "ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبناء، فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام"(184)،

إذ يعدُّ مفهوم الأسلوبية ـ كما هو معروف ـ وليد القرن العشرين وقد التصق بالدراسات اللغوية وهو بذلك قد انتقل عن مفهوم "الأسلوب" السابق في النشأة منذ قرون، والذي كان لصيقاً بالدراسات البلاغية، ومن الممكن

---

181 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص64.

182 . المرجع السابق،ص74.

183 – مقدمة ابن خلدون، ص 352.

184 . المرجع السابق، ص 353، 354.

القول إن الأسلوب مهاد طبيعي للأسلوبية فالأسلوبية تحاول الإجابة عن السؤال: كيف يكتب الكاتب نصاً من خلال اللغة؟ إذ بها ومنها يتأتى للقارئ استحسان النص أو استهجانه، كما يتأتى له، أيضاً، الوقوف على مافي النص من جاذبية فنية تسمو بالنص إلى مصاف الأعمال الفنية الخالدة.

ونجد أن الأسلوبية من المناهج التي تبنت الطرح النسقي انطلاقاً من مؤسسها شارل بالي، "فمنذ سنة 1902 كدنا نجزم مع شارل بالي أن علم الأسلوب قد تأسست قواعده النهائية مثلما أرسى أستاذه ف.دي.سوسير أصول اللسانيات الحديثة"(185)، ووضع قواعدها المبدئية، حينها غيرت الدراسات النقدية نمط تعاملها مع الآثار الأدبية، باعتمادها النسق المغلق المتمثل في النص، واستقرائه من خلال لغته الحاملة له، وإبعادها كل ماله صلة بالسياقات وإصدار الأحكام المعيارية.

يمكننا أن نَخْلُص إلى أن الأسلوبية كمنهج نقدي غايته مقاربة النصوص في سياقها اللغوي المتمثل في النص، ومدى تأثيره في القراء، فيجعل من الأسلوب مادة لدراسته، حينها نجد أن هذا الأخير يكون حقلاً خصباً تجد فيه الأسلوبية ضالتها درساً وتطبيقاً .

ومن هنا، فإن الجانب اللغوي هو مجال الباحث الأسلوبي، لأنّ الأسلوبية تعود بالضرورة ،حسب طبيعتها ،إلى "خواص النسيج اللغوي، وتنبثق منه، فإن البحث عن بعض هذه الخواص ينبغي أن يتركز في الوحدات المكونة للنص وكيفية بروزها وعلائقها"(186) أمّا فيما يتصل "بالأثر الجمالي، أو تحليل عمل الشاعر، أو الروائي، أو المسرحي وجدانياً، وجمالياً وموقفاً أو سواه فكل ذلك يكون مهمة الناقد الأدبي بعد ذلك"(187).

إن الذي أكد الصلات التي بين البلاغة، والأسلوبية، رغم استقلال كل منهما بعض عن بعض؛ أو أيضاً ازدهار كلٍ منهما في مجاله الخاص، الآراء والنظريات التي صارت تقدم في الأدب، والنقد الأدبي، والأسلوب، مثل خصوصية الأدب من الوجهة الجمالية، أوحوارية الكلمة، وخاصة في الرواية، أو تحرير المتلقي من آلية المألوف، استناداً إلى تعددية الصور البلاغية، أو الشعرية كوظيفة في الخطاب الأدبي، أو الرسالة الخالقة لأسلوبها، وهكذا دواليك.188

ولهذا سنقف على أهم أوجه الاتفاق الكثيرة بين علم الأسلوب وعلم البلاغة وعلى أوجه الاختلاف بينهما، ولعل الوقوف على هذه الفروق يوضح لنا ويجلي مدى العلاقة والاتصال بين الأسلوبية والبلاغة .

---

185 – . عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص20.

186 – . شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد/ صلاح فضل، دار الآداب، بيروت، ط1/1999، ص 80.

187 – . رجاء عيد،البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، دار المعارف، مصر، ط01/ 1993، ص33.

188 –ينظر: البلاغة والأسلوبية :محمد عبد المطلب ، ص 268.

فأما أوجه الاتفاق فهي كما يأتي:

1. أن كلا منهما نشأ منبثقا من علم اللغة وارتبط به .
2. أن مجالهما واحد وهو اللغة والأدب.
3. علم الأسلوب استفاد كثيرا من مباحث البلاغة مثل علم المعاني والمجاز والبديع وما يتصل بالموازنات بين الشعراء وأساليبهم الفردية .
4. كما أنهما يلتقيان في أهم مبدأين في الأسلوبية هما: العدول والاختيار.
5. يرى بعض النقاد أن الأسلوبية وريثة البلاغة وهي أصل لها.
6. تلتقي الأسلوبية مع البلاغة في نظرية النظم ، حيث لا فصل بين الشكل والمضمون كما أن النص لا يتجزأ .
7. البلاغة تقوم على مراعاة مقتضى الحال والأسلوبية تعتمد على الموقف وواضح ما بين المصطلحين من تقارب 189.

أما أوجه الاختلاف فهي على النحو الآتي:

1. علم البلاغة علم لغوي قديم أما علم الأسلوب فحديث.
2. البلاغة تدرس مسائلها بعيدا عن الزمن والبيئة أما الأسلوبية فإنها تدرس مسائلها بطريقتين :

طريقة أفقية . أي علاقات الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد .

طريقة رأسية . أي تطور الظاهرة الواحدة على مر العصور.

3. عندما تدرس البلاغة قيمة النص الفنية فإنها تحاول أن تكشف مدى نجاح النص المدروس في تحقيق القيمة المنشودة ، وترمي إلى إيجاد الإبداع بوصاياها التقييمية .
4. أما الأسلوبية فإنها تعلل الظاهرة الإبداعية بعد إثبات وجودها وإبراز خواص النص المميزة له.

---

189 ينظر :اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب : شكري عياد ، الطبعة الأولى 1988م، ص43-49.

5. من حيث المادة المدروسة فالبلاغة توقفت عند الجملتين كحد أقصى في دراستها للنصوص ،كما أنها تنتقي الشواهد الجيدة وتجزئها .

6. أما الأسلوبية فتنظر إلى الوحدة الجزئية مرتبطة بالنص الكلي وتحلل النص كاملا.

7. البلاغة غايتها تعليمية ترتكز على التقويم , أما الأسلوبية فغايتها التشخيص والوصف للظواهر الفنية 190.

وبعد هذه المقارنة بين البلاغة والأسلوبية يتضح لنا أنه لا تعارض بينهما وأن الأسلوبية استفادت من البلاغة كثيرا بل إن الأسلوبية لم تنهض إلا على أكتاف البلاغة ولكنها تقدمت عليها في مجال علم اللغة الحديث ولو أن هذا التقدم لا يصعب على البلاغة أن تحوزه ،كما سنبين في المبحث اللاحق،إذا ما استفادت من مبادئ وإجراءات لسانيات النص وعلم الأسلوب والمناهج الألسنية بعامة .

بين البلاغة ولسانيات النص: في الحديث عن البلاغة و لسانيات النص لا بد من الإشارة إلى التقارب المنهجي بينهما في النظرة إلى النصوص بصفة عامة، فبينهما نقاط تلاق كثيرة ،و في هذا يقول أ.د/سعيد حسن بحيرى: "لا يخفى أن لمناقشتنا لحدود البلاغة علاقتها بعلم لغة النص دلالة واضحة على الصلة بينهما إلى حد الذي جعل بعض الباحثين يعدها السابقة التاريخية لعلم النص"(191) ، و هذا يوضح بجلاء العلاقة بيهما في التعامل مع النص الأدبي في شتى تمظهراته ،و هذا ما يدفعنا ،على حسب قول فانديك، إلى القول بأن "البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجُّهها العام، المتمثل في وصف النصوص وتحديد و ظائفها المتعددة."[192]

و ينبغي أن يشار هنا إلى أن كثيرًا من الأفكار التي تبنتها لسانيات النص و النظرات النصية بزغت "من بحوث في البلاغة القديمة؛إذ إن البحث في ممارسة الخطاب(الكلام) في البلاغة القديمة يضم عددا من النظرات و القواعد الخاصة بتنظيم نصوص محددة–إذ إنه قد استخدمت في المباحث المتعلقة بترتيب الأفكار و زخرفته ،قواعد بناء محددة للنصوص لأهداف بلاغية محددة."[193]

---

190 ينظر :في الأسلوب والأسلوبية :محمد اللويمي،مطابع الحميضي ط1، ص68-70.

191 – أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 20.

192 – أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 20.

193 – أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 29.

و يضاف إلى ما سبق أن البلاغة تتوجه "إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي."[194] و ما تزال قواعد بناء النص البلاغية ضرورية ، ولا يمكن الاستغناء عنها في دراسة النص ، وبخاصة دراسة النص الشعري بفهومه الواسع.

وعلى ما سبق، فإن العلاقة بين البلاغة وعلم النص هي علاقة تفاعلية مستمرة لأنّ "علم النص يمكن أن يقدم إطارا عاما للدراسة المجددة لبعض الجوانب البلاغية في الاتصال." وذلك لأن البلاغة التي كانت فقدت أهميتها "في فترات سابقة تعد الآن السابق التاريخي لعلم النص"[195]

علم البلاغة نموذج جديد لقراءة النص الأدبي

في البداية أردنا أن نقرر بأنّ "معرفة طرق التناسب بين المسموعات و المفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك و هو علم البلاغة "[196]،فلا عجب أنه منذ النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت في الغرب أصوات تنبه إلى خطورة اختزال امبراطورية البلاغة في المستوى الأسلوبي أو المحسنات، ونجد جيرار جنيت G. Genette "ألف مقالا أسماه البلاغة المختزلة (La Rhétorique restreinte) حظي بمكانة خاصة في التنظير البلاغي الحديث محاولا فيه إبراز الانزياح الذي حدث في تاريخ البلاغة عندما تم النظر إليها من خلال جزء من أجزائها هو الأسلوب" [197] ، كما دعا بيرلمانCh. Perelman إلى ضرورة العودة إلى المعنى الشامل للبلاغة الذي يضم أبعادا حجاجية جدلية وفلسفية منطقية. وذلك في محاولة منه "لإحياء البلاغة الميتة التي فقدت على مدى قرون أجزاءهامة من امبراطوريتها الواسعة" [198].

وعندما ننتقل إلى التنظير العربي البلاغي الحديث ،نفاجأ بقلة الدراسات التي اهتمت بتدقيق المصطلح البلاغي، بل إن إلقاء نظرة على المقررات الجامعية والمدرسية تثبت مدى استمرارية السطو على الميراث البلاغي من خلال علوم تتخذ مسميات متعددة : فهي سيميولوجيا، وأسلوبية، ولسانيات، وهي منطق وجدل...إلخ. وكان الدكتور محمد العمري – فيما أعلم – من أوائل من نبه إلى خطأ المفهوم الشائع للبلاغة في الساحة الأدبية والتعليمية العربية، وهو خطأ ناجم عن اعتماد شروح التلخيص التي انصبت على عمل السكاكي"مفتاح العلوم".

---

194 – أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 21.

195 –د.حامد أبو حامد،الخطاب و القارئ،مركزالحضارة العربية ،ط2 القاهرة 2002،ص141.

196 –حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء،ص 226.

197 – Rhétorique restreinte. G. Genette. Figure3. Edition du seuil. Paris 1972. P 21-40.

198 – L'empire Rhétorique . Ch. Perelman. Librairie Philosophique. 1977. P13.

فقد شاع، في الأوساط التعليمية العربية، أن البلاغة تنحصر في ثلاثة علوم هي : البيان والمعاني والبديع، وهوالمعنى التي تقدمه الكتب التعليمية المشهورة مثل : "علوم البلاغة" لمصطفى المراغي. وغيره من الكتب التي حذت حذوه النعل بالنعل [199]. وقد استطاع الدكتورمحمد العمري في مجمل ما كتب حول البلاغة تصحيح المسار البلاغي العربي من خلال وضع الأنساق العربية الكبرى التي لا يشكل الأسلوب رافدها الوحيد، بل هناك روافد أخرى تداولية، وحجاجية إقناعية...مما يعني أن البلاغة العربيةتختزن مفهوما مغايرا للذي كرسته عصور الانحطاط عنها.

كما شكلت كتابات الدكتور محمد الولي نقطة هامة لتدقيق المصطلح البلاغي الذي ينصرف تارة إلى بلاغة المحسنات، وتارة إلى بلاغة الحجاج (بلاغة الإمتاع وبلاغة الإقناع). حيث وقف عند مختلف العناصر التي تشكل قوام البلاغة عند أرسطو، والتي لا تعتبر المحسنات إلا جزءا من أجزائه[200].

ولعل هذا ما دفع – حسب الدكتور محمد الولي – الشعريات الحديثة إلى العودة إلى البلاغة القديمة بعدما لاحظت عدم كفاية المستويات الشكلية والأسلوبية في الإحاطة بمكونات النص الأدبي : "ولكي تنجز الشعرية هذا المشروع عليها أن تطرح إشكالاتها الخاصة المختلفة عن إشكالات البلاغة الإقناعية، وليست[201] الثورات المعاصرة المتمثلة في نظريات "جمالية التلقي" و "تاريخ الأدب" و"تداولية النص الأدبي" إلخ... إلا بدايات لإعادة النظر إلى أسس الأدب التي اختزلت لعهود في نظرية المحسنات".[202]

إن هذه المجهودات المبذولة اليوم في التنظير البلاغي العربي [203] يمكن أن تفتح بابا جديدا لإعادة قراءة البلاغةالعربية القديمة، والكشف عن مكوناتها الحجاجية والإقناعية والتداولية، خاصة إذا نظرنا إلى الفكر العربي في شموليته حيث يمكن أن نجد تقاطعات عديدة بين الدرس البلاغي وبين علوم أخرى كالنحو وعلم والكلام والتفسير والمنطق.

و على هذا ،و تأسيسا على ما سبق؛ فإنّ البلاغة "تهتم بالشفرة العامة ،لا بالأساليب الفردية،فإن البلاغة بقوانينها –غير المعيارية–هي التي تتولى–إذن– حصر الأشكال المحددوة وربطها بالمتغيرات الماثلة في الواقع الإبداعي ، ووصف

---

[199]– ينظر كتاب "البلاغة العامة والبلاغات المعممة. محمد العمري. ضمن مجلة فكر ونقد. العدد 20 .يناير 2000 .،ص 69–70.

[200] – محمد الولي ،"المدخل إلى بلاغة المحسنات". مجلة فكر ونقد. العدد 17.

[201] – محمد الولي، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات،مجلة" فكر ونقد" عدد 20 – 1998. ص 138.

[202] –المرجع نفسه ،ص138.

[203] –"أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" ،كتاب جماعي،. نشر كلية الآداب منوبة. تونس. 1998 . ص 17

القيمة النسبية لكل شكل منها ، إذ بمجرد أن تولد الكلمة حية في سياقها المتحرك من رحم الإبداع الشخصي ، و يتاح لها أن تدخل في نطاق التقاليد المستقرة ،فإن و ظيفة الشكل البلاغي حينئذ تتمثل في إضافة صيغة الشعرية على الخطاب الذي يحتويها ,فبلاغة الخطاب تطمح إلى إقامة قوانين الدلالة الأدبية بكل ثرائها و إيحاءاتها ، أو تهدف إلى احتواء ما أطلق عليه "بارت" علامات الأدب"[204]

و زيادة على ما سبق، فإن البلاغة الجديدة ترى" أن عملية التشكيل تمتد بجناحيها لتشمل القول أو النص بأكمله، وتجعل هذه المقولة من الفصل بينها وبين علم لغة النص أمرا مستحيلا."[205]

و لما كانت البلاغة نظاما من التعليمات "تستخدم في إنتاج النص ،فإن معارفها مهمة في إنتاج كثير من الحالات ،و إن كان يتم عرض إمكانات الانتفاع بالأجناس البلاغية كلها في تحليل النص"[(206)] وعلى هذا ،فإنّ النص يبقى مفتوحا و "تظل قراءتنا و مشروعنا منفتحا على السؤال و البحث و الاستفادة من الإنجازات الهامة في مجال علوم الأدب و العلوم اللسانية و الاجتماعية ،بما يسهم في إنجاز قراءة أكثر إنتاجية و أكثر انفتاحا و قبولا للتطوير و الإغناء:إغناء المنهج الذي به نحلل،و النص الذي نقرأ،و لا يمكن أن يتأتى هذا إلا عبر التفاعل الإيجابي القائم على الحوار الهادف و البناء"[(207)] بين القديم والجديد مما يجعلهما ينصهران غي بوتقة واحدة مشعة بالأفكار الأصيلة والمتجددة،لأنه رغم تطور المناهج الحديثة انطلاقا من دي سوسير إلى فانديك و ر.بارت وغيرهما .فإنه لا ينبغي لنا ننكر الزخم الكبير من المعارف و القوانين التي قدمتها لنا البلاغة القديمة فلهذا ينبغي أن نوضح أن "البلاغة القديمة قد قدمت نموذجا معينا،كان مُعينا للأراء و الاقتراحات التي طُرحت فيما بعد ، وبخاصة من خلال النظريات الحديثة [(208)]".

و من المنظور السابق ، نصل إلى أن البلاغة القديمة "تضم الأفكار الجوهرية التي عُنيت الدراسات النصية بالتوسع فيها، ومن ثم توجد جوانب اتفاق عدة بينها إلى حد يصعُب معه إغفال الأثر،حتى حين تكون درجة خفائه مرتفعة."[(209)]و من هنا فإن البلاغة العامة،الجامعة بين البلاغة القديمة و الجديدة، تطرح نفسها كبديل في قراءة النص الأدبي وفق المعطيات التي رسمها المنظرون القدماء و المحدثون وأنا في هذا أطرح نوعا "من المثاقفة يقوم على

---

[204]–أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 27.

[205] – أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 28.

[206] –.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 24.

[207] –سعيد يقطين:انفتاح النص الروائي،ص154،155.

[208] –أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص143.

[209] –أ.د/سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص ،المفاهيم و الاتجاهات،ص 143،144.

الاستعانة بالتراث في فهم المسائل اللغوية الحديثة ، خاصة تلك العلوم التي لها جذور تراثية مثل علم النص الذي قلنا إن البلاغة تمثل السابق التاريخي له."[210]

و زبدة القول ، فإننا مهما حاولنا أن "نخرج بمعلومات وافرة من علم تحليل الخطاب المعاصر فلن يكون هذا المطلب يسيرا إلا إذا عدنا إلى البلاغة العربية."[211] الأصيلة ،لأنه انطلاقا من هذه المعطيات فقد" أثبتت اللغة العربية قدرتها على استيعاب الرموز و الدلالات الدينية و الاجتماعية و الروحية و الإنسانية، بوصفها لغة حية لها تقنياتها الخاصة بها ، ومقوماتها و قوانينهات الذاتية التي بها تحفظ سلامتها و ديمومة فاعليتها.أسست هذه المقومات والخصائص مبادئ أولية لعلم النقد العربي البلاغي،فأرسى البلاغيون القدامى قواعد النقد البلاغي ، وكانت أبحاثهم منطلقا لدراسات نقدية لاحقة"[212]،هذه التي أردنا أن نطرحها في هذه الورقة ،و إن تسنى لنا المجال ،في بحث لاحق، سنقوم بجملة من التطبيقات على نصوص قرآنية كريمة ،لنقف على أهم معالم هذه البلاغة العامة الجامعة بين القديم والجديد.

تركيب و استنتاج :

1. مما سبق ،صار لزاما توسيع المفاهيم البلاغية القديمة ودفعها تصنيفا، وتفسيرا، إلى مستوى الأصول التي يتولد عنها غيرها؛ ضمن نسق جديد، كما فُعِل مع الاستعارة والمجاز المرسل وصور التكرار والتوازي ضمن ما أسموه : نحو الشعر...

2. ضرورة زرع التقارب المفهوماتي في حقول تحليل الخطاب بين النقد القديم و الجديد.

3. نستطيع تفسير طبيعة الصور البلاغية وكيفية اشتغالها بإدخالها في نسق عام واستخراج البنية المشتركة بينها.

4. يمكن الربط بين البلاغة و علم النص(البلاغة الجديدة) في نسق معرفي واحد و شامل لتسهيل عملية التواصل بين العلمين.علنا نبلغ إلى اكتشاف معان أُخر داخل النص الأدبي في شتى تمظهراته الإبداعية و التحليلية.و حتى نظل في دائرة الاتصال الوثيق بلغتنا العربية و قيمها التعبيرية و البيانية.

---

210 – د.حامد أبو حامد،الخطاب و القارئ،مركزالحضارة العربية ،ط2 القاهرة 2002،ص149.

211 –د.حامد أبو حامد،الخطاب و القارئ،مركزالحضارة العربية ،ط2 القاهرة 2002،ص141.

212 –د.مها خيربك ناصر،النقد العربي البنيوي،مجلة الخطاب ،العدد الثاني :ماي 2007،ص200.

5. و استنادا على ما سبق ،فإن الضرورة المعرفية تلح على وجود علم للنص لدراسة النصوص بصفة عامة، و إثبات أن كل نص هو بشكل ما "بلاغة" أي أنه يمثل وظيفة تأثيرية، وبهذا فالبلاغة تمثل منتهى للفهم النصي مرجعه التأثير.

6. البلاغة الجديدة أوسع من لسانيات النص في كونها تهتم ببلاغة الكلمة و بلاغة الجملة و صولا إلى بلاغة النص .

نظرية النظم و سؤال البلاغة الجديدة

إنّ المتتبع للدراسات البلاغة العربية القديمة يجد فيها بحوثا كثيرة ذات اتجاه نصي[213]، لأن البلاغة ،كما يرى المحدثون "هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النص"[214].

ولعل من أهم مباحثها مبحث الوصل والفصل، ومن ذلك أيضاً صحة التقسيم وهو تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، وصحة التفسير، وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها...[215] ومنها العكس وهو أن تعكس الكلام" فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول"[216].

والعكس بهذا المفهوم استراتيجية يستعملها كثير من المتحدثين؛ لتعطيهم وقفة عقلية لصياغة الجملة التالية، ومنها الرجوع وهو" أن يذكر الشيء ثم يرجع عنه كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك."[217]

والرجوع إضافة إلى علاقته بالتماسك الدلالي، هو استراتيجية حجاجية، ومما له علاقة بالتماسك الدلالي الاستطراد " وهو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه ..."[218].

ومن تلك المباحث أيضاً: جمع المؤتلف والمختلف...، والتوشيح، وشرحه أبو هلال العسكري بأنه ما كان مبتدأ الكلام فيه ينبئ عن مقطعه وأوله يخبر عن آخره[219]، وغير ذلك من المحسنات اللفظية، والمعنوية التي جعلها القدماء كالحلية الزائدة مع أن لها دوراً مهماً في التماسك اللفظي والدلالي للنص.

ولكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مبحث الوصل والفصل، الذي له ارتباط وثيق بمصطلح بلاغة الخطاب من حيث التماسك النصي له، وقد تميّز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تناوله لهذا المبحث في إطار نظرية النظم؛

213–ينظر: حبك النص "منظورات من التراث العربي": محمد العبد، مجلة الدراسات اللغوية، مج الثالث، ع الثالث، رجب ورمضان 1422هـ/ أكتوبر وديسمبر 2001، ص ص 138-220.

214–بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل ، ص250.

215–ينظر: أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1409هـ/ 1989م، ص 375 – 382.

216–المرجع نفسه: ص 411.

217–المرجع نفسه: ص 443.

218–المرجع نفسه: ص 443.

219– ينظر: المرجع نفسه، ص 452، وص 425.

ولذلك فهو يقول في أهمية الوصل والفصل " اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب".[220]

وينظر عبد القاهر الجرجاني إلى الوصل والفصل من خلال (العطف)، أو عدمه، كما ينظر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى عطف جملة على جملة أخرى معتمداً على مقولة المحل الإعرابي؛ لذلك فعطف الجمل عنده على ضربين:

أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، "وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد... فإذا قلت: (مررت برجلٍ خُلُقه حَسَن، وخَلْقه قبيح) كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جَرٍّ بأنها صفة للنكرة، ونظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل"[221].

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني: وذلك أن "تعطف على الجملة العارية الموضع الإعراب جملة أخرى، كقولك: (زيد قائم وعمرو قاعد) (والعلم حسن والجهل قبيح)... لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعرابٍ قد وجب للأولى بوجه من الوجوه".[222]

يذهب عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، بناء على ذلك، إلى أنه يجب مراعاة أشياء أخرى، وتلك الأشياء ترجع إلى المعاني؛ بحيث تكون جهة جامعة في مثل هذه الحالة .[223]

وفي الفصل بين الجمل يرى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أنه يكون في الجملة المؤكدة للتي قبلها، وكذلك حينما تختلف جهة الكلام من الحكاية إلى الخبر والعكس... ويذهب بعد ذلك إلى التفصيل في مواضع الفصل تفصيلاً دقيقاً يسنده بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي[224] ويرى الفقي أن مصطلح التماسك مرادف لمصطلح التعليق عند عبد القاهر (471هـ)[225]، وهذا قد لا يكون صحيحاً على إطلاقه وعمومه، ولا يساعد عليه

220– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص 158.

221– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص153.

222– المصدر نفسه، ص 153.

223–ينظر: المصدر نفسه: ص: 153- 154.

224– ينظر: المصدر نفسه: ص: 155-156.

225– صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ، ج1، ص 78.

النص المقتبس من الجرجاني عند الفقي، ولكن الأولى بالصواب، فيما أرى، عدُّ مصطلح (النظم) أو (الضم) عند عبدالقاهر (471هـ) أقرب إلى مصطلح التماسك في المفهوم من مصطلح التعليق[226].

ولأجل ذلك فإن نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من أهم النظريات في الجهد اللغوي العربي عند القدماء، وقد تناولها اللسانيون، والنقاد، والبلاغيون، والمفكرون بالدرس.

ولكن من المهم أن يعرف في هذا المقام أن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) يقيم نظريته في (النظم) على النحو؛ إذ يقول: "ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيّته حقّه من النظر، وتدبّرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم ..."[227]

مواقف النقاد المحدثين من نظرية النظم:

وإذا كان عبد القاهر (471هـ) قد أقام علم النظم على دراسة التبعيات القواعدية من حيث علاقتها بالمفاهيم، كما تقول إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد، فإنهما قد أشارا بمزيد من الإكبار لمباحث متعددة عند عبد القاهر لها علاقة بالنظرية النصية التي يعملان عليها.[228]

ولهذا كله وجب معرفيا تبيان مواقف النقاد العرب المحدثين من نظرية النظم عند الجرجاني (471هـ)، وعليه يمكن القول، استنباطا من الدراسات العربية الحديثة التي اهتمت بهذا الشأن، بأن البلاغيّين والنقّاد العرب المحدثين يقفون في تقييمهم لنظرية النظم عند الجرجاني (471هـ) مواقف متباينة، هي –كما ألفناها – "امتداد لمواقفهم المبدئية من التراث العربيّ برمّته: فمنهم من يقف منها موقف الرضى والإعجاب إلى الحدّ الذي يدفعه إلى وضعها على قدم المساواة مع أحدث ما انتهت إليه المدارس والاتجاهات النقديّة الحديثة في الغرب، إن لم نقل: تفضيلها عليها.

فيصبح هذا الإعجاب البالغ حدّ التقديس سجناً لصاحبه، يحبس نفْسه فيه، ويحول بينه وبين الانفتاح على منجزات الآخر، الذي يصبح بمنزلة الخصم؛ فلا يعود كافياً أن نفخر بما عندنا ونعتدّ به، بل لا بدّ – في المقابل– من أن نطعن في منجزات ذلك الآخر ونقلّل من شأنها، حتّى نثبت أنّنا بماضينا أفضل منه بحاضره[229].

---

[226]–ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص:75-76

[227]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص: 335-336.

[228]–ينظر: روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر)، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية ، ص 18.

[229]–ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص76.

ويمكننا أن نعدّ من هؤلاء –في منتصف القرن الماضي– محمد مندور، الذي دفعه حماسه للجرجاني وإعجابه بنظريّته في النظم إلى وضعه جنباً إلى جنب مع كبار النقّاد المحدَثين في الغرب، يقول في كتابه "النقد المنهجي عند العرب": "وفي الحقّ إنّ عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلّها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهمّيّته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقريّة لغويّة منقطعة النظير. وعلى أساس هذا المذهب كوّن مبادئه في إدراك "دلائل الإعجاز". مذهب عبد القاهر هو أصحّ وأحدث ما وصل إليه عليم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبْت فرديناند دي سوسير Ferdinand de saussure الذي توفي سنة 1913م"[230].

ونجد إلى جانب مندور مصطفى ناصف، والولي محمد. إذ يقول الأوّل: "لقد عجبتُ حين خُيّل إليّ –أكثر من مرة– أنّ بعض منحنيات النقد القديم ذات الأهميّة، لا تنفصل انفصالاً حادّاً عن النقد المعاصر"[231].

وبحرص أشدّ يقول الثاني: "وما تزال التساؤلات التي أثارها الجرجاني بشأن الاستعارة تحتفظ إلى اليوم بالكثير من المعاصرة. لقد كان وهماً ما تصوّرناه — ونحن واقعون تحت تأثير النقد الاجتماعي والنفسي والتاريخي والانطباعي — من إمكان تجاوز البلاغة القديمة باعتبارها واعد جامدة. وإذا كانت هذه البلاغة قد فقدت الكثير من المواقع قي المؤسسات التعليمية، فإن ثورة علوم اللغة وما أعقب ذلك قد نبّه الأذهان إلى أنّ البلاغة لن تموت، وخاصة إذا كانت بحجم بلاغة الجرجاني. إنّ العودة إلى الجرجاني هي عودة إلى نصّ لم يفقد جِدّته، نصّ يثير من التساؤلات أكثر ممّا يقدّم من أجوبة قاطعة، نصّ يفتح باب الاجتهاد ويتركه كذلك"[232].

وإلى هذه الجماعة يمكننا أن ننسب عبد العزيز حمودة، الذي لا يقل اندفاعه وحماسه عن أيٍّ ممّن أسلفنا، ولا سيّما في ثلاثيّته: المرايا المحدّبة، والمرايا المقعرة، والخروج من التيه؛ التي تجشّم فيها مؤونة نقد النظريّات النقدية الحداثيّة وما بعد الحداثيّة، سواء في نسخها الغربيّة أو العربيّة، ثمّ حاول أن يقدّم بديلاً عربيّاً أصيلاً، وكانت نظريّة الجرجاني أفضل ما يمكن أن يتشبّث به لتحقيق ذلك الغرض، وإن كان يحاول جاهداً أن يظهر بمظهر المعتدل ويحتال في ذلك بكثير من عبارات الاحتراز والاحتياط، ولكنّ مَيْله لا يلبث أن يغلبه.

يقول حمودة في "المرايا المقعرة": "إنّ النظم يمثّل مكوّناً في نظرية لغوية لا تقلّ سماتها وضوحاً عن سمات أيّ نظرية لغويّة حديثة. والواقع أنّ مفهوم "النظم"يمثّل العمود الفقريّ لنظرية لغوية عربية لا تقلّ تكاملاً –من ناحية اتّساقها

---

[230]– محمد مندور، النقد المنهجي عند العربدار نهضة مصر، القاهرة، ص333–334.

[231]– الولي محمد، الصورة الشعريّة في الخطاب البلاغي النقدي: المركز الثقافي، بيروت، 1990، ص 66.

[232]– مصطفى ناصف، النقد العربيّ — نحو نظرية ثانية: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص 22.

على الأقلّ– عن أيّ نظريّة لغوية حديثة، بما في ذلك نظرية فرديناند دي سوسير التي اتخذتها علوم اللغة نقطة انطلاق إلى تشعيبات وتفريعات لغوية ونقدية شبه لا نهائية"[233].

ويقول متجاوزاً نطاق الجرجاني (471هـ): "بعد كلّ ما قدّمناه، لا أظنّ أنّنا بحاجة إلى إعادة تأكيد أنّ العقل العربيّ قد عكف منذ القرن الثالث الهجريّ وحتّى نهاية القرن الخامس على تطوير نظريّة لغويّة لا تختلف في مكوناتها كثيراً عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي أسّس له فرديناند دي سوسير في بداية القرن العشرين "[234].

المزلق الحقيقي الذي يقع فيه حمودة وربّما غيره من أصحاب هذه الفئة هو أنّه يجد نفسه مضطراً إلى نقد – بل نقض وهدم –كلّ ما أتت به المدارس النقديّة الحديثة، ليتّخذ من ذلك مدخلاً إلى اقتراح بديل عربيّ، هو — في الحقيقة — غير موجود في الحاضر العربيّ، وإنّما في التراث العربيّ، في القرن الخامس الهجريّ، وبالتحديد: عند عبد القاهر الجرجاني!

ألا يمكننا أن نقدّم نظريّة عربيّة، دون أن نبدأ بهدم منجزات الحداثة الغربيّة؟! ألا يمكن الاحتفاظ بالنموذجين معاً؟! لماذا نضيّق واسعاً؟!

فنحن إمّا أن نتبعهم، ونسير في أذيالهم، وإمّا أن ننشغل بهجائهم، والطعن في كلّ ما يأتي من جهتهم، وبيان مساوئه، وإظهار التوجّس والارتياب ممّا يتضمّنه — بلا شكّ — من شرور ومضارّ ! أنا أتفهم أن يبدأ حمودة أو غيره من النقاد العرب بنقد طرائق العرب في الاستفادة من النظريات والمدارس الغربيّة؛ لأنّها — في الواقع — قاصرة ومضطربة وعقيمة، تفتقر إلى النضج والوعي.

فلماذا يصرّ الناقد العربيّ على أن يتجاوز" بنقده هذا الحدّ ليطال به مدارس القوم ومذاهبهم في عقر دارهم؟! وكأنه لا يعلم أنّ لنشأتها عندهم أسباباً تاريخيّة وثقافية تجعل من هذه النشأة في تلك البيئة أمراً طبيعيّاً ومنطقيّاً، وأنّها لم تُجلب إليهم جلباً كما هي حالها عندنا، وإنّما ثمّة ظروف وملابسات حضاريّة خاصّة بهم هي التي دعت إلى نشأتها وتسييرها في الاتجاهات التي تسير فيها"[235].

---

[233]– عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، (نحو نظرية نقدية عربية): ص 220.

[234]–المرجع نفسه، ص 243.

[235]– محمد العبد، حبك النص "منظورات من التراث العربي" ، ص 136.

وأما الذين انبهروا بحضارة الغرب الحديث في كلّ نواحيها: الماديّة والفكريّة، فهم الذين يقفون في الطرف الآخر على النقيض تماماً من الطرف الأوّل، وأدّت بهم المقارنة بين تلك الحضارة المفعمة بالحياة والتقدّم وبين الواقع العربيّ الراكد المتخلّف إلى ازدراء هذا الواقع والاستخزاء منه.

لم يكتفوا بذلك، بل سحبوا هذا الازدراء على التراث العربيّ بجملته، وأبوا أن يتّخذوا منه أساساً لمعاودة بناء حضارة عربيّة جديدة، وإنّما عكفوا على محاولة اصطناع نسخة عربيّة من الحضارة الغربيّة الحديثة لتكون هي ذلك الأساس الذي سينطلق منه العرب لبناء حضارتهم في هذا العصر.[236]

حيث تجاهلوا في "ذلك بديهيّات لا يمكن تجاوزها أو التحايل عليها بهذه السهولة، أبْيَنُها: أنّ المدارس العلميّة والاتجاهات الفكريّة في الغرب إنّما نشأت تلبية لحاجات خاصّة بتلك الشعوب، وكانت نتيجةً لصراعات تاريخيّة طويلة، فهي بالنسبة إليهم بمنزلة المكتسبات الحضاريّة الذاتية، التي يصعب نقلها –في صورتها النهائيّة– إلى أيّ مجتمع آخر لتؤدّي الوظيفة الحضاريّة نفسها التي أدّتها في مجتمعاتها الأمّ؛ بسبب اختلاف السياق التاريخي والحضاريّ بين تلك المجتمعات وغيرها، في حين أنّ "نظريّة الجرجاني"نشأت في تربية عربيّة، لتلبية حاجات فكريّة خاصّة بالمجتمع العربيّ — في حينها —، وهي حاجات لها أبعادها الدينيّة والأدبيّة، وحتّى السياسيّة"[237].

ومن خير من يمثّله –في بداية القرن الماضي– ميخائيل نعيمه. الذي يصرّح في كتابه "الغربال" بلهجة فيها كثير من الاحتقار والسخرية من العقل العربيّ عامّة، حتّى في أوج ازدهاره، وذروة عطائه وإبداعه، مقارناً بينه وبين "العقل الغربيّ "الحديث[238].

وعلى أيّة حال، فلعلّه يكون من الملائم هنا الإشارة إلى أنّ هذا الفريق الذي يقف من التراث موقفاً هجائياً، عادة ما يكون ذلك مبنيّاً على انبهاره بالحاضر الغربيّ، ورغبته الجامحة في الالتحاق بركبه.

وهو يصب جام غضبه على الذين يقولون له: وهل نسيت —أو أنت جاهل– أسماء امرئ القيس والنابغة الذبياني ولبيد وعلقمة الفحل وعنترة والمهلهل والمتنبي والهمذاني والأخطل وجرير وابن رشد وابن سينا... الخ من الأقدمين، وشوقي وحافظ والمطران وكثير سواهم من المحدَثين؟ كلا يا سادتي، أنا لم أنس هؤلاء كلّهم، بل لا أتجاسر أن أزعج سكينة قبور الراقدين منهم، ولا أن أرفع عينيّ الخاطئتين إلى أكاليل الغار وأهلّة النور فوق رؤوس الباقين في قيد الحياة. إنما أهمس همساً كي لا نثير غضبهم: إنّ غثّهم أكثر من سمينهم.[239]

236–ينظر: محمد العبد، حبك النص "منظورات من التراث العربي" ، ص 138.

237–المرجع نفسه، ص 138.

238–ينظر: ميخائيل نعيمة، الغربال: ط15، نوفل، بيروت، 1991، ص47.

239–ينظر: ميخائيل نعيمة ،الغربال: ، المرجع السابق، ص: 47-49.

وعلى كلٍّ، لا أظنّكم ضالين إلى حدّ أن ترفعوا أحداً منهم إلى مصافّ هوميروس وفرجيل ودانتي وشكسبير وملتون وبَيرُن وهيكو وزولا وغوته وهينه وتولستوي. أولئك عاشوا وماتوا ليتغزّلوا بظباء الفلاة، ولمع المشرَفِيّات، ووقع سنابك الخيل، وسفك الدماء، ومشي الإبل، وأطلال المنازل، ونار القِرى، إلخ.

ويرى بأن الآخرين فقد اختارتهم السماء أصفياءها، وأسكنتهم الأولمب، ولمست شفاههم بجمرة الحق؛ فكانت عِظاتهم تتّقد به، وتلمس القلوب المظلمة فتجعلها آنية جديدة للحق. هؤلاء أجنحة تطير بالإنسانية إلى حيث الجمال والكمال والمحبة. هؤلاء أرواح سماوية تخفر مهاوي الهلاك، وتنادي السائرين إليها:"احترسوا". هؤلاء صوت صارخ في البرية: "أعدوا سبل الحق". هؤلاء معلّمو الإنسانية وقوّادها. دعوهم في أعاليهم؛ فنحن قاصرون عن إدراكهم بأيدٍ أثقلتها سلاسل القيود، وعيون امتصّت الظلمة ماءها، وعقول لم تتحرّر من أوهام الماضي وأشباحه وغرور المستقبل لتدرك حاضرها[240].

واضحٌ أنّ نعيمة لا يكتفي بازدراء التراث العربيّ، بل يمتدّ ازدراءه وسخريته ليطال العقل العربيّ وإنتاجه في ماضيه وحاضره، ولو أردنا أن ندقق في التشخيص لقلنا: إنّ خيبة أمله في الحاضر العربيّ، وشعوره بسببه بكثير من الاعتزار والدونيّة، هو الذي دفعه إلى احتقار الماضي العربي، وسحب تخلّف الحاضر وتردّيه أحواله عليه.

هذه النغمة نفسها نسمعها عند العقّاد والمازني في السنوات الأولى من القرن العشرين، وهي نغمة الانبهار بالعقل الغربيّ الحديث وإبداعاته، التي تتحوّل تلقائياً إلى ذمّ للعقل العربيّ وتجاهل لإنجازاته، يقول صاحبا الديوان: "وإنّ المرء ليزهو بآدميّته حين يُلقي بنفسه في غمار الآداب الغربيّة، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تيّاراتها وتعارض مهابّها ومتجهاتها وتجاوب أصدائها وأصواتها: أبوابٌ للكتابة منوّعة، ومهايع متّسعة، وفنون مبتدعة، ونِحَل ومذاهب، ومدارس ومشارب. والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كلّ شِيَة من شِياتها، محسوسة في كلّ خطرة من خطراتها، متكرّرة متضاعفة، شاكة موقنة، جادة ساخرة، ناقمة راضية"[241].

وإن كان العقاد قد عدّل من هذا الموقف في مرحلةٍ متأخّرة، وأصبح أمْيل إلى الاعتدال الحذِر في تعامله مع الثقافة الغربيّة، وخوفه من أن يؤدّي التأثّر غير الواعي بالغرب إلى الذوبان فيه والحَيْف على الهويّة العربيّة في ذاتها.

240–ينظر: المرجع نفسه، ص: 47-49.

241– العقاد عباس محمود والمازني، إبراهيم عبد القادر: الديوان: ط4، دار الشعب، القاهرة، ص121.

ولهذا يقول في كتابه "بين الكتب والناس "(1952م): "وقد تبيّن أنّ الهويّة الواقية كانت ألزم للعالم العربي في هذا الدور ممّا كانت في جميع الأدوار الماضية منذ بداية النهضة في العصر الحديث؛ فإنّ الدعوات العالميّة خليقة أن تجور على كيان القوميّة وأن تؤول بها إلى فناءٍ كفناء المغلوب في الغالب"[242]

ويتابع جابر عصفور على المنوال نفسه، معلناً عن انبهاره بإنجازات الثقافة الغربيّة. ولكنْ، وهذا يُسجّل له، دون أن يدفعه ذلك إلى احتقار تراثه العربيّ والغضّ من شأنه. يقول في كتابه "نظريات معاصرة"واصفاً إعجابه بالبنيويّة وحماسَه لها: "كانت البنيويّة مبعوث العناية اللغويّة الذي حمل بشارة العهد الآتي إلى العلوم الإنسانية ومنها النقد الأدبيّ، دلاً إيّاها على طريق الهداية المنهجيّة والجنة الموعودة للدراسات العلمية التي تؤسّس النقد الأدبيّ بوصفه علماً من العلوم الإنسانيّة المنضبطة. وسواء تحدّثنا عن البنيويّة بوصفها حركة اجتماعيّة سياسيّة أو بوصفها نشاطاً أيديولوجيّاً، فإنّها تظلّ مشروعاً منهجيّاً بالدرجة الأولى، من حيث هي دعوة إلى تطبيق النموذج المنهجيّ الذي انبنى عليه علم اللغة عند سوسير"[243]

من هنا، فإننا عندما نعود إلى نظريّة الجرجاني والانطلاق منها، بتطويرها وتجديدها وإحيائها، دون التحجّر عندها، والاحتباس بين جدرانها، سيكون أجدى وأنفع كثيراً من الاعتماد على نسخة دخيلة من النظريّات النقديّة الغربيّة الحديثة، ولا يعني هذا أن نجعل بيننا وبين المنجزات الحديثة سدّاً منيعا، ولكن أن يكون تأثّرنا بهم في حدود التبادل الحضاريّ المعروف بين الأمم.

هذه سنّة طبيعيّة وصحيّة في الوقت نفسه، ولكنْ ما ليس طبيعياً ولا صحيّاً هو هذه الرغبة في الذوبان والاندماج في الآخر، بعد الانسلاخ من كلّ خصوصيّة تاريخيّة وحضاريّة.[244] ونسيان تراث أربعة عشر قرنا من العمل الجاد في شتى المجالات الفكرية.

وهكذا، نكون —من خلال ما سبق – قد بيّنا موقف الفريق الثالث الذي يتوسّط بين الطرفين السابقين، فلا يقنع بأن يعيش حبيس الماضي، ولا يرضى –في المقابل– أن يقتات على فتات غيره.

ولكن منهجه في ذلك أن يقدّر الماضي حقّ قدره، فيضعه في سياقه التاريخي الصحيح، ويتعامل معه على أنّ ماضٍ ليس غير، لا يمكن أن نباهي به حاضر الآخر المتقدّم، ولكنّه يمكن أن يكون منطلقاً لحاضر يضاهي حاضر الآخر.

242– العقاد، بين الكتب والناس: القاهرة، 1952، ص 20.

243– عصفور جابر: نظريات معاصرة: مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998، ص 207.

244–ينظر: د. عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث: دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1988م، ص6.

وفي ذلك السياق التاريخيّ نفسه ينظر إلى ماضيه نظرة تقدير، لأنّه كان –في حينه– فتحاً عظيماً، ولا يرى من الحقّ أن نحمّل الماضي وزر تخلّفنا ونكوصنا في الحاضر[245].

ومن الأمثلة على هذه الفئة الناقد العربي المعاصر شكري عيّاد، الذي يقول في كتابه "اللغة والإبداع" شارحاً هذا الموقف المتوسّط: "... منهجنا منهج المنظور التاريخي، الذي يسجّل المتغيرات كما يسجّل الثوابت، ويعترف بالنسبي كما يعترف بالمطلق، ويرتكز على الوعي بالحاضر بدلاً من تقديس الماضي "[246].

ويقف في هذا الصفّ نفسه عزّ الدين إسماعيل يقول: "فلم يعد هناك مجال في وقتنا الراهن لانطلاق بعض الأصوات منادية بنوع من القطيعة الإبستمولوجية مع التراث...، فاهتمامنا بالتراث اليوم لا ينطلق من عاطفة أوليّة ساذجة تتمثل في الحنين إلى الماضي، وتعكس في جوهرها نوعاً من عبادة الأسلاف. وهو كذلك لا ينطلق من أي شعور بالقداسة لهذا التراث، يجعل الاقتراب النقديّ منه بمنزلة خطيئة لا تُغتفر. وكذلك فإننا لم نعد ننظر إلى التراث على أنه كيان موحّد مغلَق على ذاته، يُقبَل كلّه أو يرفض كلّه... إنّ تراثنا هو حصيلة ما حقّقه الإنسان العربي على مدى التاريخ من نجاح وإخفاق، ومن انتصار وانكسار؛ فاجتمع فيه الإشراق والإعتام، والحيوية والجمود، وكلّ فضائل العقل البشري ورذائله "[247].

مرتكزات بلاغة الخطاب من خلال نظرية النظم

بعدما بيّنا هذه المواقف الثلاثة، واخترنا أكثرها علميّة وموضوعيّة ومنهجية، حسب ما أرى، وأعظمها نفعاً في خدمة كلّ من التراث والحاضر، والحقّ أنّ الجرجاني (471هـ) لم يكن سوى نموذج؛ فإنّ هذه المواقف الثلاثة لا ينفك الباحث يجدها أثناء دراسته لأيّ علَم من أعلام التاريخ أو أيّة نظريّة أو مذهب أو حتّى فكرة اشتمل عليها تراثه.

يدفعنا الحديث عن الجرجاني (471هـ) إلى النظر في نظرية النظم عنده، التي بنيت على أسس علمية حيث صرّح الجرجاني (471هـ) في أول كتابه "دلائل الإعجاز" بهدفه من تأليفه، وهو أن يمكّن القارئ من وضع يده على الخصائص والمزايا التي تعرض في الكلام، حتى يفضُل بعضه بعضاً، ثمّ يتعاظم ذلك الفضل حتى يبلغ حدّ الإعجاز الذي تنقطع عنده أعناق البلغاء، وتنحسر دونه مطامعهم، فيقرّون جميعاً بالعجز.

245–ينظر: المرجع نفسه، ص08.

246– عياد شكري، اللغة والإبداع– مبادئ علم الأسلوب العربيّ: القاهرة، 1988، ص 9.

247– عز الدين إسماعيل، "أما بعد": مجلة فصول، العدد الأوّل، المجلد السادس، 1985، ص4. الذي يعلن هذا الاعتدال في الرؤية في افتتاحه للعدد الأوّل من المجلّد السادس (1985) لمجلة فصول، وكان عندئذ رئيساً لتحريرها، وهو إعلان له قيمته ودلالته؛ ذلك أنّ مجلّة فصول هي الآن – ومنذ نشأتها عام 1980 – تمثّل موقف النقّاد العرب من الاتّجاهات والمدارس النقديّة المعاصرة، وتبيّن طبيعة صلتهم بها.

وقد بحث في معنى "الفصاحة" و"البلاغة" و"البيان" و"البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فوجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلْب، وموضع الدفين ليُبْحث عنه فيُخْرَجَ، وكما يفتح لك الطريقُ إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها.[248]

ووجد المعوَّل على أن ههنا "نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأنَّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلُها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضُل هناك النظمُ النظمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ، والصياغةُ الصياغةَ، ثم يعظُم الفضلُ، وتكثُر المزيّة، حتى يفوق الشيء نظيرَه والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدّم منه الشيءُ الشيءَ، ثم يزداد فضله ذلك ويترق منزلةً فوق منزلةٍ، ويعلو مرقباً بعد مرقب، ويُستأنف له غاية بعد غايةٍ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتَحْسَر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز"[249].

ولا يكفي –عند الجرجاني– في بيان هذه الخصائص والمزايا العباراتُ المجملة التي لا تشفي الغُلّة، بل لا بدّ من تحديدها تحديداً دقيقاً، ووصفها وصفاً مفصّلاً، وإيراد أمثلةٍ كافية لها، كما هي الحال في كافّة أنواع الصناعات.

وفي هذا يقول: "ولا يكفي أن تقولوا: إنّه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكَلِم بعضها على بعض، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها، وتذكروا لها أمثلة، وتقولوا : "مثلُ كيت وكيت"، كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقَّش ما تعلم به وجه دقة الصنعة، أو يعمله بين يديك، حتى ترى عِياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء، وماذا يذهب منها طولاً وماذا يذهب منها عرضاً، وبِمَ يبدأ وبم يُثنّى وبم يُثلث، وتُبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرّف اليد، ما تعلم معه مكان الحِذق وموضع الأستاذية"[250].

وأمّا الفصاحة عنده فهي "خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة"، أو ما أشبه ذلك من القول المجمَل، كافياً في معرفتها، ومغنياً في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها. فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثيرِ التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطاقات الإبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى. وذلك ما لا يقوله عاقل"[251].

248–ينظر: عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز: ، المصدر السابق، ص:34-35.

249– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص34-35.

250–المصدر نفسه، ص36.

251–المصدر نفسه، ص36.

وإذا تمكّن المتعلّم من ذلك أصبح قادراً على التمييز في الكلام بين الصواب والخطأ، والمفاضلة بين الإساءة والإحسان، بل بين الإحسان والإحسان. يقول الجرجاني: "وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علماً تُمِرّ فيه وتُحلي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويَفْصِل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تُفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين"[252].

وإذا كان الأمر كذلك، تبين" أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تنصِب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسَلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء، حتى تفصِّل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تَعرِض في نظم الكلِم وتعدّها واحدة واحدة، وتُسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصَّنَع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل آجُرّة من الآجر الذي في البناء البديع"[253].

وفيما يخصّ موطن تلك الخصائص، فإنّ الجرجاني لا يقبل بأن يكون "هو الألفاظ المفردة، لأنّه لا مجال للمفاضلة بينها؛ فهي مستوية في الدلالة على المعاني التي وُضعت لها؛ كما أنّ الكلمة قد تقع من النفس موقعاً عجيباً رائقاً في موضع ثمّ ينعكس ذلك في موضع آخر"[254].

ولا يمكن أن تكون الكلمة بمفردها لها مزية دون النظر إلى موقعها في النظم، فلا "تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن يُنظَر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخفّ، وامتزاجها أحسن، ومما يَكُد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة" إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟

وهل قالوا: "لفظة متمكنة ومقبولة"وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُبُوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّها؟

وهل تشكّ إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[255]، فتجلّى لك منها الإعجاز، وبَهرك الذي ترى وتسمع – أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلِم بعضها ببعض،

252– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص37.

253–المصدر نفسه، ص37.

254– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص38.

255–سورة هود/ 44.

وأنْ لم يعرِض لها الحسنُ والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتَجَ ما بينها وحصَل من مجموعها؟ [256]

لو أُخذت لفظة من بين أخواتها وأفردت، هل تؤدي من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

ومن هنا فإن الشك ينتفي لأن مبدأ العظمة في أنْ نوديت الأرض، ثم أُمرت، ثم في أنْ كان النداء "بيا"دون "أيّ"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة "الماء"إلى "الكاف"، دون أن يقال: "أبلعي الماء"، ثم أنْ أُتبع نداء الأرض وأمْرها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمْرَها كذلك بما يخصّها، ثم أنْ قيل: "وغيض الماء"، فجاء الفعل على صيغة "فُعل"الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقُضي الأمر"، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: "استوت على الجودي"، ثم إضمار "السفينة"قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل"في الخاتمة "بقيل "في الفاتحة ؟

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتُحصرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها – تعلُّقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالي في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردّة، ولا من حيث هي كلِم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تَعَلُّق له بصريح اللفظ.[257]

وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع"في بيت الحماسة:

تلفّتُّ نحو الحيّ حتى وجدتُني

وجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا [258]

وبيت البحتري:

وإني وإن بلّغْتَني شرف الغنى

256–ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص38.

257–ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص42.

258–البيت للصمّة بن عبد الله القُشَيريّ، في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي، ج3، ص114. نقلاً عن محقّق دلائل الإعجاز، ص47، حاشية1.

وأعتقتَ من رِقّ المطامع أخدعي [259]

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهر قوّمْ من أخدعيك، فقد

أضججت هذا الأنام من خُرُقكْ [260]

فتجد لها من الثّقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوْح والخفة ومن الإيناس والبهجة"[261].

وليس المقصود بنظم الألفاظ مجرّد تتابعها في النطق كما هي الحال في نظم الحروف، إذن لاستوى الناس كلّهم في العلم بحسن النظم ورداءته؛ لأنّهم جميعاً يُحسّون بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً. ولكنّ المقصود به تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

ونستخلص مما سبق، بأن الاعتبار في النظم هو للمعاني وليس للألفاظ؛" بل إنّ الألفاظ في ذلك تبَعٌ للمعاني، فهي تترتّب تلقائياً بحسَب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النفس، ولا يحتاج المتكلّم أن يفكّر مرّتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنّما ينحصر تفكيره في المعنى؛ فإذا ترتّبت المعاني جاءت الألفاظ مرتّبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد"[262].

وزيادة على ذلك "فلا يُتَصوَّر أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقَفَوْت بها آثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[263].

ويرى الجرجاني في ترتيب المعاني في النفس، والضوابط التي يخضع لها، أنّ مرجع الأمر في ذلك إلى قوانين النحو وأصوله؛ "ذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه: فينظر في (الخبر) إلى

259–البيت في ديوان البحتري. انظر الحاشية 2 للمحقّق، ص47.

260–البيت في ديوان أبي تمّام. انظر الحاشية 3 للمحقّق، ص47 أيضاً.

261– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص: 44-47.

262–المصدر نفسه، ص53.

263–المصدر نفسه، ص: 53-54.

الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق"و "زيد ينطلق" و"ينطلق زيد" و"منطلق زيدٌ " و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيدٌ" و"زيدُ هو المنطلق" و"زيدٌ هو منطلقٌ ".

وفي "الشرط والجزاء"إلى الوجوه التي تراها في قولك": إنْ تَخرُج أخرج " و"إن خرجتَ خرجتُ" و"إن تخرج فأنا خارج" و"أنا خارج إن خرجتَ " و"أنا إن خرجتَ خارج ". وفي "الحال"إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، وجاءني يُسرع"، و"جاءني وهو مسرعٌ أو وهو يسرع" و"جاءني قد أسرع" و"جاءني وقد أسرع ".[264]

فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به من حيث ينبغي له. وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاصّ معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ "إنْ" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجمل" التي تُسْرَد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقُّه الوصلُ موضعَ "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" من موضع ثمّ"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكنْ"من موضع "بلْ".[265]

ونجده في الكلام كلّه، كما يرى الجرجاني،يتصرف في "التعريف والتنكير والتقديم والتأخير، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيُصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إنْ كان صواباً، وخطؤه إنْ كان خطأ، إلى "النظم"، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووُضِع في حقّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأُزيل عن موضعه، واستُعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدتَه يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[266].

لتبيان صحة مذهبه لا يقصر الجرجاني في سوق الأمثلة الدالّة على ذلك، والمتمثلة في أنّ حسن النظم إنّما يأتي من جودة التصرّف في قواعد النحو، وأنّ رداءته إنّما تأتي من سوء التصرف فيها[267].

264–ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص: 53–54.

265–ينظر: المصدر نفسه، ص: 49–56.

266–المصدر نفسه، ص: 81–83.

267– عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز: ، المصدر السابق، ص83–86.

من أجل ذلك كان المؤلّف قد عقد في أوّل كتابه مبحثاً دافع فيه عن علم النحو عند مَن يغُضّ منه ويشكّك في جدواه وحثّ على تعلّمه والتقوّي فيه؛ لأنه المرتكز الذي ستقوم عليه نظريّته في بقيّة الكتاب.

تجليات بلاغة الخطاب عند الجرجاني:

ولتبيان ذلك والتأكيد عليه وجدناه يقول: "وأمّا زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم[268]، وأشبه بأن يكون صدّاً عن كتاب الله، وعن معرفة معانية؛ ذاك لأنهم لا يجدون بدّاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرِج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلامٍ ورجحانه حتى يُعرَض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يُرجَع إليه، لا ينكر ذلك إلا من ينكر حسّه، وإلا من غالط في الحقائق نفسَه. وإذا كان الأمر كذلك، فليت شعري ما عُذر من تهاون به وزهد فيه، ولم يرَ أن يستقيه من مصبّه، ويأخذه من معدنه، ورضي لنفسه بالنقص والكمالُ لها مُعْرِض، وآثر الغَبِينة وهو يجد إلى الربح سبيلاً"[269].

لا يعدو أن يكون النظم، عند الجرجاني، تمثيلاً للمعاني النحويّة، فلهذا من البديهي أن تكون الجملة هي محور عمل الناظم؛ لأنّها هي الوحدة الكلاميّة التي تظهر فيها العلاقات النحويّة الإسناديّة، كما هو الحال بين المبتدأ والخبر، وبين الفعل والفاعل والمفعول... الخ، وما قد يعتريها من تقديم وتأخير، وحذف، وإضمار وإظهار ... الخ.

ولكنّ النطاق قد يتّسع أحياناً ليضمّ جملتين أو أكثر، عندما "تتّحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل"[270]، ومن ذلك المزاوجةُ بين معنيين في الشرط والجزاء معاً؛ كقول البحتري[271]:

إذا ما نهى الناهي فلجّ بيَ الهوى

أصاخت إلى الواشي فلجّ بها الهجرُ

ومنه ما قد يضمّ عدّة أبيات؛ كقول بعضهم[272]:

---

[268]–أي زهدهم في رواية الشعر وحفظه، وذمّهم الاشتغال بعلمه، ينظر ص11 من المصدر نفسه.

[269]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص28.

[270]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المصدر السابق، ص 93.

[271]–ديوان البحتري، انظر الحاشية2 لمحقق دلائل الإعجاز، ص 93.

[272]–لم يقف المحقق على صاحب هذه الأبيات، انظر تعليقه عليها ص94، حاشية5

لو أنّ ما أنتمُ فيه يدوم لكم

ظننتُ ما أنا فيه دائماً أبداً

لكنْ رأيت الليالي غير تاركةٍ

ما سرّ من حادثٍ أو ساء مطّرداً

فقد سكنتُ إلى أنّي وأنّكُمُ

سنستجدّ خلاف الحالتين غداً

ويبيّن الجرجاني أن موضعُ المزيّة في هذه الأبيات هو في قوله: "سنستجدّ خلاف الحالتين غداً"؛ لأنّ فيه جمعاً لطيفاً لِما قسّمه قبلُ، بالإضافة إلى حسن بنائه، ولطف توصّله إليه.

ومذهب الجرجاني إلى أنّ المعاني النحويّة هي الأساس الذي تقوم عليه البلاغة، والمعيار الذي به يُفاضَل بين قول وقول، لا يعني أنّ الكلام متى استقام على قواعد النحو وسلم من الخطأ فقد صار له فضلُ شرفٍ ومزيّة؛ فإنّ البحث في تقويم اللسان وعصمته من الزلل في الإعراب ليس ها هنا مجاله، وإنّما مجاله كتب النحو. أمّا في البلاغة فإنّ ما يُعتدّ به هو التصرّف في المعاني النحوية تصرّفاً فنيّاً إبداعيّاً يُسفر عن "أمور تدرَك بالفِكَر اللطيفة، ودقائق يوصَل إليها بثاقب الفهم"[273].

وكذلك تجنّب الخطأ فليس هو من البلاغة حتّى "يُحتاج في التحفّظ منه إلى لطفِ نظر، وفضلِ رويّة، وقوّة ذهن، وشدّة تيقّظ"[274]، وهذا هو المعيار المعتمد عليه في الموازنة بين كلام وآخر، والمفاضلة بينهما.

273– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص98.

274–المصدر نفسه، ص98.

وللإشارة، فإنّ عبد القاهر، وإن كان يُقيم نظريّته في النظم على أساسٍ من علم النحو، فليس هو نحويّاً، ولا يعنيه أن يدرس المباحث النحويّة من تقديمٍ وتأخير، وإظهار وإضمار، وحذف... من حيث هي كذلك؛ وإنّما من حيث إمكانيّة توظيفها من أجل صناعة عبارات بليغة. فمثل قول الجاحظ مثلاً: "جنّبك الله الشُّبهة، وعصمك من الحَيْرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبُّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك بَرْد اليقين... "- ليس في نظمه وتأليفه أيّ فضل، وإن سلم من الخطأ، وجرى على قواعد النحو؛ لأنّه ليس فيه دقّة صناعة، ولا سبيل فيه إلى التخيّر[275].

وكما أنّ النكت البلاغيّة قد تلتبس عند طائفة من الدارسين بمباحث النحو لاتّكائها عليها، فإنّها قد تلتبس عند طائفة أخرى بالمحسّنات البديعيّة والاستخدامات المجازيّة للألفاظ، فيُظَنّ أنّ المزيّة للألفاظ حين تضمّنت جناساً أو طباقاً.

أو حين أحيلت عن معانيها المعجميّة إلى معانٍ جديدة اقتضتها العلاقات والقرائن في داخل العبارة؛ مع أنّ الذي أوجب المزية ليس هو ذلك، وإنّما مكانها في تألف الجملة ونظمها. ومثاله ما في قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: 4]؛ فإن الناس دأبوا على نسبة الشرف فيه إلى الاستعارة وإفرادها بالمزيّة والفضل.

الأمر كذلك؛ لأنّنا لو قلبنا العبارة فقلنا (واشتعل شيب الرأس) لذهب ما فيها من روعة وفخامة، مع أنّ الاستعارة لم تزل قائمة. فلم يبق إلا أن يكون مكمن الحسن في العبارة هو إسناد فعل الاشتعال إلى الرأس، والمجيء بالشيب الذي له الفعل في المعنى منصوباً بعده. وهذا المسلك في نظم العبارة يشحنها بدلالات جديدة لم تكن ممكنة لو أُسند الاشتعال إلى الشيب مباشرة؛ وذلك أنّ إسناد الاشتعال إلى الرأس يفيد -بالإضافة إلى لمعان الشيب في الرأس-الشمولَ والشيوع.

وممّا هو من جنس النظم في هذه العبارة تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، ولو صُرّح بالإضافة فقيل: (واشتعل رأسي) لذهب كثير من حسنها[276].

ويتّسع نطاق النظم -أيضاً- ليخرج عن حدّ الجملة الواحدة إلى جملتين أو أكثر في باب الوصل والفصل، وما يتضمنّه من عطف بعض الجمل على بعض أو ترك العطف والمجيء بها مستأنفةً.

---

[275]-ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص97-98.

[276]-ينظر: المصدر نفسه، ص99-101.

ومن الملائم هنا أن نتذاكر أنّ حروف العطف تفيد إشراك ما بعدها لما قبلها في الحكم الإعرابيّ، بالإضافة إلى معانٍ أخرى: كالترتيب مع التعقيب في الفاء، والترتيب مع التراخي في (ثمّ)، والتخيير في (أو). وبسبب هذا المعنى الإضافي الذي يفيده كلٌّ من هذه الحروف فإنّه لا يَعرِض فيها إشكالٌ في لزوم العطف أو تركه؛ لأنّنا متى احتجنا إلى الدلالة على أيٍّ من تلك المعاني جئنا بالحرف المختصّ به.

ولكنّ الإشكال يعرض في الواو؛ لأنها لا تفيد – بالإضافة إلى الإشراك في الحكم الإعرابيّ – أيّ معنى. وهنا يصبح لا بدّ من اللجوء إلى صناعة النظم واستقراء لطائفها في كلام العرب من شعر وغيره؛ لمعرفة متى يحسن العطف بالواو، ومتى يحسن القطع والاستئناف، ومتى تكون المزيّة لهذا، ومتى تكون لذاك. فالوصل والفصل بابٌ من أبواب النحو، ولكنّ التصرّف فيه للإتيان بمعنى بارع، والسلوكَ به مسالك دقيقة خفيّة هو من شأن النظم.

يخبرنا الجرجانيّ أنّ الوصل يحسن بين الجملتين إذا كان ثمّ علاقةٌ بين المحدَّث عنه في إحداهما والمحدَّث عنه في الأخرى، وكان الخبر عن الثاني ممّا له صلة بالخبر عن الأوّل؛ كأن يكون شبيهاً له أو نظيراً أو نقيضاً، كما يُقال: زيدٌ كاتبٌ، وأخوه شاعر. وتزداد الحاجة إلى العطف إذا كان المتحدَّث عنه في الجملتين واحداً، كقولنا: عمرو يضرّ وينفع، ويحسن ويسيء[277].

بينما يحسن الفصل في كلّ جملة كان حالها مع ما قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤَكَّد، فتتصل بها من ذات نفسها وتستغني عن حرف العطف؛ كما في قوله تعالى: "إنّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم؛ لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذابٌ عظيم"[278]؛ فإنّ قوله "لا يؤمنون" تأكيد لقوله "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم "[279]، وممّا حقّه الفصل أيضاً ما يجيء من الجمل على معنى جواب لسؤال مقدّر؛ كما في قول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت عليلُ

سهرٌ دائمٌ، وحزنٌ طويلُ [280]

277–ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص 224–226.

278–سورة البقرة/ 06–07.

279– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص227–228.

280–علق عليه المحقق بقوله: "مشهور غير منسوب"، في الحاشية1، ص238.

فقدّر الشاعر أنّ الذي سأله عن حاله، أتبع سؤاله بسؤال آخر عن علّته، فأجابه: سهرٌ دائم وحزن طويل[281]. ومن هذا الفنّ كلّ ما يرِد في القرآن من لفظ (قال) مفصولاً عمّا قبله، أنّه على تقدير سؤال محذوف.[282]

ومن فنون النظم الدقيقة التي بيّنها الجرجاني في هذا الباب أنّ عطف الجملة لا يكون دائماً على ما قبلها مباشرة؛ ولكنّها قد تُعطف على جملة يفصلها عنها جملةٌ أو أكثر. كما في قول المتنبّي:

تولَّوا بغتةً فكأنّ بيناً

تهيّبني ففاجأني اغتيالاً

فكان مسير عيسهمُ ذميلاً

وسير الدمع إثهرهم انهمالاً[283]

فيتّضح بعد ترديد النظر أنّ جملة (كان مسير عيسهم ذميلاً) ليست معطوفة على جملة (كأنّ بيناً تهيّبني)؛ لأنّ عطفها يُفسد المعنى؛ إذ يُدخلها في معنى (كأنّ)، ويصبح السير مشكوكاً فيه، وليس هذا مقصود الشاعر، وإنّما يستقيم المعنى إذا عُطفت على (تولّوا بغتة). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ جملة (كان مسير عيسهم ذميلاً) ليست معطوفة على جملة (تولّوا بغتة) وحدها، وإنّما هي معطوفة على البيت السابق كلّه؛ لأنّ (كأنّ بيناً تهيبني) مرتبطةٌ بقوله (تولّوا بغتة) ارتباط سببيّة؛ بمعنى أنّ الثانية مسبَّب والأولى سبب؛ فكأنه قال (تولّوا بغتة فتوهّمتُ أنّ بيناً تهيّبني).

وكذلك فإنّ قوله (كان مسير عيسهم ذميلاً) لم يُعطف وحده على البيت السابق، ولكنّ العطف تناول البيت الثاني بجملته، مرتبطاً آخره بأوّله؛ لأنّ تولّيهم بغتة وما توهمّه الشاعر من بَيْنٍ تهيّبه كان مستدعياً بكاءه بدمع منهمل، ولم يكن ذكره لذملان العيس إلا ليذكر همِلان الدمع[284].

وهكذا، فإنّ العطف كما يكون بسيطاً؛ عندما تُعطف جملة على جملة، فإنّه قد يجيء مركّباً؛ بأن تعمد إلى جملتين أو أكثر فتعطف بعضها على بعض، ثمّ مجموعها على مجموعٍ سابق[285].

281– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص238.

282–المصدر نفسه، ص240.

283–ديوان المتنبي، انظر الحاشية1 من حواشي محقق دلائل الإعجاز، ص244.

284–ينظر: ديوان المتنبي، انظر الحاشية1 من حواشي محقق دلائل الإعجاز المصدر السابق، ص242-245.

285–دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص245.

وهذا –فيما يبدو– أوسعُ نطاق تبلغه نظريّة النظم عند الجرجاني؛ أعني الخروج من حيّز الجملة الواحدة إلى حيّز مجموعة محدودة من الجمل، وهو نفس الحيّز الذي تعمل فيه قواعد النحو، مع الفارق بين وظيفة النحو ووظيفة البلاغة.

بين نظرية النظم و البنيوية"

وأجدني في هذا المجال مضطرا لطرح السؤال التالي: هل هناك علاقة بين البنيوية ونظرية النظم؟

وللإجابة عن هذا السؤال سوف أعتمد اعتماد كبيراً في استجلاء مصطلح البنيويّة على كتاب عبد العزيز حمودة "المرايا المحدّبة (من البنيوية إلى التفكيك)"[286]، محاولا قدر الإمكان أن نقف عند المحطات الأساسيّة التي من شأنها أن تجيب عن السؤال الذي طرحته، ويترتّب على هذا أنّني سأنحو منحى مختصراً، معرضا عن كثير من التفصيلات والتفريعات والتنويعات داخل المدارس اللغويّة والنقديّة التي تبنّت هذا المصطلح طوال عقود من القرن الماضي. ولعلّي لا أبالغ إذا قلت: إنّ مصطلح البنيويّة كان هو المصطلح الأكثر شيوعاً وخطورة في مجالات المعرفة الإنسانيّة عامّة، والأدبيّة خاصّة طيلة تلك العقود.

إذن، سوف أختصر الكلام اختصاراً مقتصرا على تحديد ظروف نشأة المصطلح، ومفهومه، ثمّ طريقة توظيفه في ميدان اللغة والأدب.

و لهذا سيظهر لنا جليا بأن تينيانوف كان "أوّل من استخدم لفظة "بنية" في السنوات المبكّرة من العشرينيّات، وتبعه رومان ياكوبسون الذي استخدم كلمة البنيويّة لأوّل مرّة عام 1929 "[287]

وقد أشارات تطورات الفكر الفلسفي الغربيّ عبر ثلاثة قرون والتحوّلاتُ المعرفيّة التي صاحبت ذلك التطور كلها في اتجاه واحد حتميّ، وهو ظهور الدراسة اللغويّة كعلم مستقلّ بذاته: له قوانينه وقواعده التي تحكم عمل عالم اللغة الذي يستخدم أدوات المنهج التجريبي في علميّة لا تقلّ – إنْ لم تكن تزيد – عن علميّة الدراسات النفسيّة التي كانت قد أكّدت وجودها. وهكذا شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين نشر كتاب "فردينان دي سوسير ": Cours de linguistics عام 1915م، والذي يمثّل عدداً من محاضرات المفكّر السويسري كان قد ألقاها على طلابه قبل ذلك بسنوات. لقد أصبحت الظروف في الواقع مهيّأةً لظهور ما يُسمّى بالنموذج اللغويّ الذي سيتكفّل البنيويّون –فيما بعد– بتطويره ليصبح أساس المقاربة النقدية (البنيويّة) للنصوص الأدبيّة "[288]

---

[286]–ينظر: إبراهيم زكريا، مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، د.ت. وروبنز، ر.هـ: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب). ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1997. وستروك، جون: البنيوية وما بعدها– من ليفي شتراوس ألى دريدا. ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1996. وفضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النصّ. عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1992.

[287]–المرايا المحدّبة (من النيويّة إلى التفكيك): حمودة عبد العزيز، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نيسان 1998، ص187.

[288]– عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص: 183–184.

ويرى الدارسون بأنّ أبرز إنجازات دي سوسير والتي تحتلّ مركز الثقل في كتابه هي "نظرية النظام أو النسق System اللغوي الذي يحكم الاستخدام الفرديّ للّغة، هذا بالإضافة إلى تطوير مفهوم العلاقة Sign اللغوية بشقيها: الدالّSignifier، والمدلول Signified "[289].

والنسق اللغويّ –وهو ما يهمنا هنا– "ليس شيئاً ماديّاً محسوساً، شأنه في ذلك شأن قوانين الحركة؛ لذلك فإنّ ما نستطيع أن نبدأ به دراستنا لأيّ لغة هو شواهد الكلام الفرديّ: نسجّلها ونرصدها ونحلّلها، ثمّ ننتقل –بعد ذلك – من مرحلة الرصد والتسجيل إلى الضبط –إلى وضع القواعد العامّة التي تحكم الكلام. هذا هو النسق وهذه هي اللغة. وحينما نصل إلى النسق فإنّ تطبيقه على الكلام– على الحالات الفرديّة لاستخدام اللغة، هو الذي يعطي الكلام معنى، وبدون هذا النسق يصبح الكلام أصواتاً بلا دلالة أو معنى. نفس الشيء بالنسبة للنسق الأدبيّ، حيث يُكسب ذلك النسقُ العامّ الأعمال الفرديّة دلالتها ومعناها "[290].

والنسق الفرديّ –سواء في اللغة أو الأدب– "لا يمثّل أجزاءه؛ لأنّه هو جزء من نسق عامّ، أو من بنية كليّة تحكم قواعد الدلالة داخل النسق الفرديّ "[291]

ويرى الدارسون أيضا بأن النقلة التي حدثت من البنيويّة اللغوية إلى البنيوية الأدبيّة في أوائل الستينيّات هي "المحصّلة الطبيعية لجهود مبكّرة ارتبطت بـ "ياكوبسون "و "وبروب" وجيل من "الشكليين" الماركسيّين، لم تنجح في إنشاء تيّار قويّ قادر على إنشاء مدرسة أو مشروع نقديّ جديد، وقد جاءت الدفعة التي أعطت هذه الجهود زخماً جديداً جمَعها في تيار فرض نفسَه بقوة على الحياة الثقافيّة في الشرق والغرب، من جانب ليفي –شتراوس الذي تحوّل كتابه "الأنثوبولوجيا البنيويّة"(1958م) إلى مرجع أساسيّ في سنوات قليلة. بدايةً، فإنّ دراسة شتراوس في الأنثروبولوجيا البنيويّة أعطت شرعية نهائية لنقل منهج البنيويّة اللغوية إلى محيطات أو أنساق أخرى غير نسق اللغة. وقد كانت تلك النقلة هي النقلة التي انتظرها نقّاد الأدب ليفعلوا الشيء نفسه، وبالنجاح نفسه"[292].

وفيما يخص دراسة فلاديمير بروب المبكّرة عن القصص الشعبية والروايات الخياليّة الروسية Fairy tales، فإنها "لا تقلّ في أهميتها عن دراسة ليفي –شتراوس .... إنّ مناقشة بروب لبناء المئة قصّة التي جمعها تقدّم لنا أوّل دراسة بنيويّة لبناء شكل قصصيّ، هو أقرب إلى الشكل الروائيّ منه إلى بناء الأسطورة. إنّه –بالفعل– يصل في تحليله لتلك القصص إلى تحديد علاقات الوحدات المكوِّنة للرواية، وهو إنجاز يضع دراسته المبكّرة في مقدّمة الدراسات البنيويّة

289–المرجع نفسه، ص 222.

290–المرجع نفسه، ص 223.

291–المرجع نفسه، ص 225.

292– عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص 227.

المبكّرة للأدب .... إنّ أهميّة بروب كبنيويّ مبكّر تتأكّد بشكل قاطع حينما ينتقل من دراسة القصّة الخياليّة الواحدة كوحدة بنائيّة مفردة، إلى تصوّر بنية كليّة عامّة للقصة، يسمّيها "القصة العمدة أو الأنموذج"، تتوافر فيها كلّ الاحتمالات البنائيّة للإحدى والثلاثين وظيفة [وهي وظائف الشخوص كما استقرأها من جملة قصصه الخرافيّة]"[293].

وإذا كان البنيويّون اللغويّون يقومون،كما نرى ذلك في الدراسات اللسانية الحديثة، "بتقسيم النصّ اللغويّ إلى أصغر مكوّناته البنائيّة وهي الفونيمات والمورفيمات، أو إلى أصغر مكوّناته الصوتيّة والشكليّة، فإنّ البنيويّين الأدبيين –وعلى رأسهم ليفي شتراوس– يقسمون النصّ الأدبيّ إلى أصغر مكوّناته البنائيّة، وهي "المايتمات "Mythemes، أو ما يسميها كمال أبو ديب "الأُسَيطرات""[294].

وفيما يتعلّق بمفهوم النسق وتكوّنه وتطبيقه في مجالي: اللغة والأدب، يمكن إجمال ما سبق بأنّ اللغويّات البنيويّة عند تعاملها مع النصّ اللغويّ، في شتى تمظهراته،"تقوم بالبدء من نقطة صغرى: فتبدأ بتحديد العناصر التي ربّما لا يكون لها معنى، مثل: الفونيمات، وهي أصغر عناصر تكوين اللغة.

ثمّ ينتقل التحليل البنيوي لرصد تجميع هذه العناصر في وحدات ذات معنى، وهي الكلمات، ثمّ كيف تُجمع هذه الوحدات الدلاليّة الصغرى في نظام أوسع أو نسق أكبر، وهو اللغة. لكنّ الكلمة بمفردها – معزولة خارج نسق – لا يمكن أن تدلّ أو تشير إلى وحدة أخرى معزولة، ولهذا نتحوّل إلى النسق الأصغر، وهو الجملة. داخل النسق الأصغر، تصبح الوحدة الصغرى[أي الكلمة المفردة] جزءاً من نسق دالّ وتكتسب دلالتها الأوسع من علاقتها مع الوحدات الأخرى داخل النسق. المرحلة التالية أكثر تركيبيّة وتعقيداً، وهي ربط هذه الجمل / الأنساق الصغرى وتجميعها داخل نسق أكبر، هو النصّ.

في النسقين السابقين تتحدّد دلالة الوحدة (الكلمة في الجملة، والجملة في النصّ) عن طريق علاقاتها مع الوحدات الأخرى في ظلّ مبدأ اتّفق حوله البنيويّون جميعاً، وهو التضادّات الثنائية Binary Oppositions. وهناك نسق ثالث هو النسق العامّ أو النظام الذي يحكم الإنتاج الفرديّ للنوع Genre، وهو نسق نتحرّك في اتجاهه انطلاقاً من النصوص الفرديّة، أو منطلقين منه في اتجاه النصّ الفردي في تحليل تطبيقي يؤكّد اتّفاق النص المفرد أو النسق الأصغر، أو اختلافه مع النسق أو النظام العامّ[295].

---

[293]–المرجع نفسه، ص 228–230.

[294]–المرجع نفسه، ص 233.

[295]–ينظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص 253–254.

بعدما فرغنا من تلك الإطلالة السريعة والإلمامة المتعجّلة بمصطلح البنية، نرجع بعدها إلى نظرية "النظم" عند الجرجاني، لنحكم على مدى اقتراب صاحبنا أو ابتعاده في نظريّته عن هذا المصطلح الحديث، مستفيدين في ذلك من آراء مَنْ سبقنا إلى الخوض في هذا الموضوع من النقّاد المعاصرين، لنقف على رأي النقد الحديث في "نظرية النظْم "للجرجانيّ.

وعليه، آن لنا أن نبسط القول في تقييم هذا النقد لتلك النظريّة، بعد ما أسلفنا من وقوفٍ عند أبرز محطّات "نظرية النظم " للجرجاني، وتعريجٍ على مفهوم "البنية" في النقد الحديث، عن طريق بيان مدى صلتها بأكثر مفاهيمه مركزيّة – أعني: مفهوم "البنية".

لا شكّ في أنّ "نظريّة النظم" هي أفضل وأرقى ما توصّلت إليه البلاغة العربيّة في تاريخا كلّه: قبل الجرجانيّ وبعده، وأنّها تمثّل تصوّراً متماسكاً ومنظّماً ودقيقاً لبناء البلاغة العربيّة.

بل لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ البلاغة العربيّة – على طول تاريخها – لم تنتج أيّة نظريّة بلاغيّة – بالمعنى الصحيح والدقيق والعلميّ للكلمة – سوى نظريّة الجرجاني، وإذا قلنا – أيضاً – : إنّ الدارس لتاريخ البلاغة العربيّة لن يقف عند أيّة محطّة فيها وقوفَه عند محطة الجرجاني، دون أن يُفهم من هذا – من قريب أو بعيد – أننا ننكر قيمة الأعمال السابقة للجرجاني في التمهيد لنظريته، ابتداءً بالجاحظ وانتهاء بالقاضي عبد الجبار المعتزليّ، ولكنّ الأقدار اسعدته بأن كان هو الذي قطف الثمرة، ودون أن يُفهم –كذلك – أنّنا ننكر قيمة المحاولات التي سارت في اتّجاهات مغايرة لاتّجاه الجرجاني، ولكنّنا هنا نتحدث عن نظريّات، ولا أظنّ أنّه بإمكاننا أن نُثبت هذا المصطلح – إذا تحرينا النهج العلميّ والموضوعيّ – لأيّ من تلك المحاولات.[296]

الخاتمة:خلاصة و تركيب

وما نخلص إليه هو أن نظرية النظم كانت – بحق – مقدّمة أو نواة لنظرية بلاغية عربيّة فذّة، لو قُيّض لها من ينطلق منها ويتمّمها بعد الجرجاني، كانت – عندئذ – ستترقّى إلى نظرية ربّما تفوق كلّ النظريّات الحداثيّة اليوم، ولكنّها – وهذا ممّا يؤسف له – توقّفت عند الجرجاني.

296–ينظر: المرايا المحدبة: عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص: 253-254.

المقاربة البلاغية في فهم الخطاب القرآني

تمهيد

إن نظرة سريعة في التراث الفكري الذي خلفته التفسيرات العديدة للقرآن الكريم تهدي إلى أن هناك عدة مناهج ومقاربات أُعتمدت في تأويل و تفسير القرآن الكريم كلٌ لها منطلقاتها و مبادؤها التي ارتكزت عليها ، ومن هنا اختلفت النظرات و التأويلات.

و من المعلوم أن هدف كل التفسيرات،قديما وحديثا، هو الوقوف على المعنى القرآني الذي حملته تراكيبه في مختلف السور،و كلمة المعنى مشتقة من "عنيت كذا : قصدته وعنت القرية : أظهرت ماءها وعنت الأرض: أنبتت نبتا حسنا وتقول :عانيت الأمر: قاسيته وتعناه: تجشمه ، وعناه الأمر: أهمه. أما المعنى الاصطلاحي فهو التَّصَوُّرُ الذِّهْنِيُّ الْمُرْتَبِطُ بِالكَلِمَةِ ارْتِبَاطاً بِالْمُطَابَقَةِ"[297].

معنى المعنى القرآني :

وقد اتفق العقلاء على أن الحديث عن المعنى القرآنيّ لا يقصد إلى معانى كلمات القرآن الكريم في حقلها المعجمي ووجودها الإفراديّ ذلك " أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما من فوائد "[298].

و المعنى في القرآن الكريم ،كما بينت الدراسات القرآنية،على نوعين:

1. المعنى القصْدِيّ : هو مراد الله تعالى من كلامه ،و الذي استنبطه الرسول صلوات الله وسلامه عليه من فهمه للقرآن بتوفيق من الله تعالى، لأنه صلوات الله وسلامه عليه مبيّن للقرآن، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد، وعلينا فهمه إذا وصلنا بالسند الصحيح.

---

297 – راجع في هذا :التعريفات للسيد الشريف:122، معجم النقد العربي القديم لمطلوب:2/310+326، ومعجم المصطلحات العربية لمجدي وهبة:374،علم النفس اللغوي لنوال عطية:45،42،20، مفهوم المعنى لعزمي سلام:24، سيكولوجية اللغة لجمعة يوسف:125، دور الكلمة في اللغة لستيفان أولمان ترجمة كمال بشر:61، اللغة مبناها ومعناها لتمام حسان: 24

298 – دلائل الإعجاز – عبد القاهر – ت:شاكر:539

2. المعنى الإدراكِيّ : هو المعنى الذي توصل إليه أهل العلم و الاستنباط و التدبر وفق مناهج محددة ومعلومة ، وهذا ميدان بحثنا و عملنا هنا ،وقد عُرِّف بأنه:"كلُّ ما يدركه ويستنبطه أهلُ العلم من النَّصِّ في سياق السورة المقاليّ والمقاميّ وفقا لأصول وضوابط الفهم والاستنباط"[299].

و قد حث القرآن الكريم ،في مجال المعنى الإدراكي، في كثير من نصوصه على ضرورة تدبره و الوقوف على مقاصده مثل قوله تعالى: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }[300] ،وحثهم على التدبر : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ}[301] ، وقال أيضا :{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً }[302]، وقال سبحانه وتعالى:{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }[303]إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا؛ فإن التدبر هو السبيل القويم للوقوف على معاني القرآن الكريم ،إذ إن التدبر هو الهدف الأساسي من نزول القرآن كي يتذكر أهل النهى بما فيه من عظات ،و عبر ، و توجيهات للنجاح في الدنيا و الآخرة.

لهذا ؛فإن الدراسة تحاول استنطاق التراكيب القرآنية لتلمس السمات البلاغية لهذا البيان ، وتحرص على أن تمزج النظر في السمات البلاغية بالنظر في لطائف معاني الوحي الكريم ، وما تحوي تلك التراكيب في بيان الوحي من دقائق، ورقائق، ولطائف معاني الهدى .

ماهية البلاغة القرآنية

إن القرآن الكريم كلام الله المعجز المنزل على سيدنا محمد صلى الله وسلم بواسطة الأمين جبريل عليه لينذر الثقلين بلسان عربي مبين ،هذا اللسان الذي اختير لإظهار الإعجاز البياني في كلام الله تعالى في جميع وجوهه، وأحواله، و تعبيراته ليجعل البشر يقفون حائرين في هذا النسيج البياني المحكم و المبهر ، ويجعلنا نبحث عن أسرار هذا الإعجاز رغم أنَّ ألفاظه، كما نعلم، هي نفس الألفاظ التي كان يستعملها العرب في شعرهم ،و نثرهم ،و التواصل فيما بينهم.

---

[299] –ينظر: العزفُ على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، إعداد م:حمود توفيق محمد سعد ،الطبعة الأولى 1424هـ،ص13.

[300] –سورة التوبة :122.

[301] –سورة ص:22.

[302] –سورة النساء:82.

[303] –سورة محمد:24.

و في هذا يقول ابن خلدون:" إن القرآن نزل بلغة العرب – وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[304].

و لكنَّك لو حاولت أن تنزع لفظا من ألفاظه لتأتي بشبيه له مكانه لايسعفك المعنى و لا السياق، وفي هذا يقول" أبو محمد بن عطية الأندلسي " [ت: 546هـ] : " وكتاب الله ؛ لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجِد ، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبة العرب . يومئذ . في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، ومَيْزِ الكلام "[(305)].

و بهذا، وغيره كثير، تحدى القرآن الكريم العرب، أصحاب ومؤسسي اللسان، ليأتوا بمثله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ،لأنهم ،كما يقول عبد القاهر، أعجزتهم" مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلِّ مثلٍ ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظةٍ وتنبيه وإعلام وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان،وبهرهم أنَّهم تأمَّلوه سورة سورة ، وعُشْرا عشرا ،وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور ،ونظاما ،والتئاما، وإتقانا، وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول »[(306)].

بل إنَّ "أبا سليمان الخطابي " ، وهو أول من تحدث عن البلاغة الخاصة بالقرآن الكريم، بيَّن أن حسن اختيار الكلمات وانتقائها و جعلها كاللبوس الحسن اللائق للمعنى هي عمود بلاغة الخطاب عامة ، فكيف بذلك في بلاغة القرآن الكريم ؟

و تأسيسا على ذلك؛ فإن " عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة " ([(307)]).

---

304 –مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة أمكتبة وهبة ، القاهرة،ص326.

305 – ابن عطية :المحرر الوجيز : ج1ص 39 – ط: المجلس العلمي بفاس – تونس : 1395

306 – دلائل الإعجاز :39

307 – الخطابي :بيان إعجاز القرآن: ص 29 – ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تح : محمد خلف الله وزغلول سلام – دار المعرف بمصر :1387

بل إنه "لا معنى لهذه العبارات [البلاغة والقصاحة ..] وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها في ماله كانت دلالة ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية» [308].

ولو دققت النظر في قوله:" ويختار له اللفظ ..." كيف أنّه أوجب في اللفظ المختار خمس صفات :

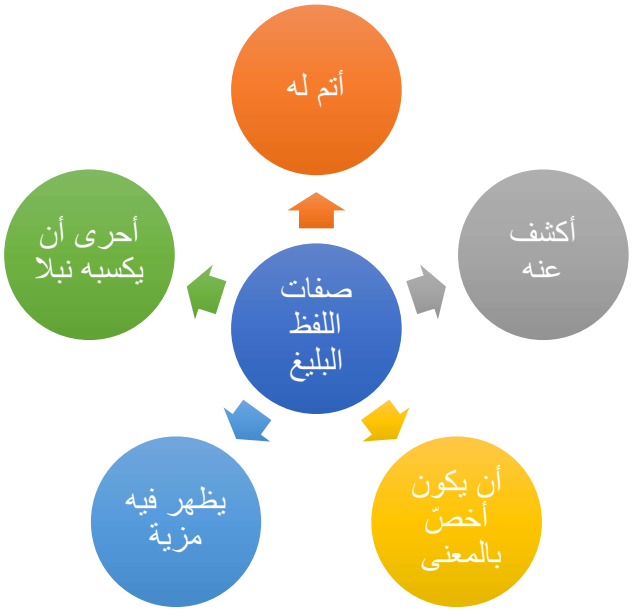

إن هذه الصفات لا تبرز إلا إذا وضع اللفظ في موضعه الذي يقبله السياق و يرتضيه المعنى و يختاره الذوق فإنّك، في بعض الحالات، ترى "الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ،ثُمَّ تراها بعينها تثقُلُ علَيْكَ وتوحشك في موضع آخر» [309].

و ذلك أن القرآن جاء متحديا لهم ،و من هنا فإنه من المعلوم" أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غاياتٍ ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضا، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن الذي نزل في الوحي، يدعى للمتأخرين

---

[308] – دلائل الإعجاز : 43

[309] – دلائل الإعجاز : تح : شاكر ص 46.

من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي وكان فيه التحدي، أم زادوا على أولئك الأولين، أو كمُلوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكمُلوا له .كيف؟ ونحن نراهم يحمِلون عنهم أنفُسهم، و يبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلا عن الزيادة عليهم"[310].

في هذا المسعى فإن البدايات الأولى لهذا النوع من التفسير ،كانت مع الصحابي الجليل ابن عباس .فهو يشكل البداية الحقيقية ، والمحطة الأولى،في التفسير اللغوي ،من اعتماده على الشعر العربي ،ولغة العرب في التفسير ، وهي البدايات التي استفاد منها كثير من المفسرين ،واللغويين الذين جاءوا بعده .مما جعل كثيرا من الدارسين يعدون جهود ابن عباس في التفسير هي النواة الأولى في تفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا وأدبيا[311].

مراحل المقاربة البلاغية في تأويل القرآن الكريم:

من المعلوم الذي لا يخفى على ذي لب أن لغة القرآن لغة معجزة أبهرت،كما أسلفنا، العرب أهل البيان والفصاحة و البلاغة ؛بل وقفوا حيالها واجمين لأنَّ هذه اللغة" التي نزل القرآن معجزا بها قادرة بطبيعتها هي أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين :كلامٍ هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلامٍ يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه"[312].

لهذا فإن عجز الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله أصبح ظاهرا للعيان ،وفتح الباب على مصراعيه للتدبر وللتقرب من معانيه التي حملتها التراكيب في دقائقها، و فهم الرسائل التي حوتها لتصير منهاجا للحياة السوية و الناجحة، وفي ذلك يقول ابن مسعود : "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ"[313].

و من هنا سنحاول تبيان، حسب مقدورنا وتقديرنا، المراحل المطلوبة في المقاربة البلاغية لإدراك كنه ،رغم بعدنا البعد المطلق لفهم مراد الله تعالى، تلك الحقائق المخبوءة بين التراكيب

و المراحل هي:

---

[310] – الرسالة الشافية 579 ، ملحقة بدلائل الإعجاز.

[311] – موسوعة مدرسة مكة في التفسير : تفسير ابن عباس:للدكتور احمد العمراني .دار السلام :2011.

[312] –مداخل إعجاز القرآن 164.

[313] –**أخرجه الطبراني في " الكبير " (9 / 146)، رقم (8665) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود، و ذكره الهيثمي في " المجمع " (7 / 168)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، و رجال أحدها رجال الصحيح. و أخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (532) و الطبراني أيضا (9 / 146)، رقم (8666) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله.**

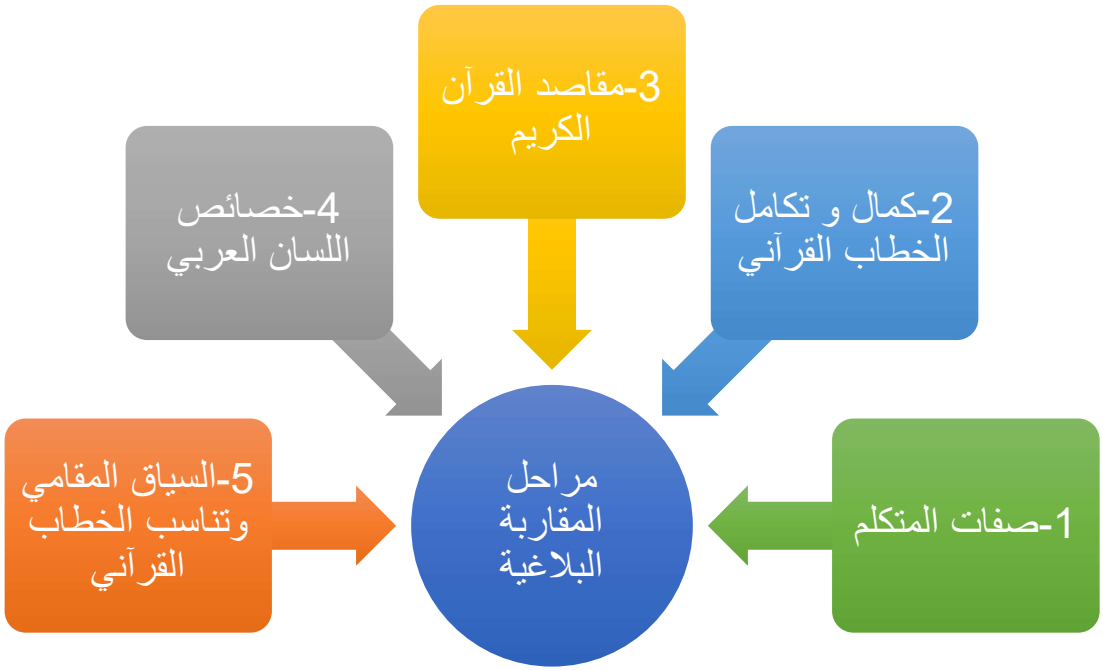

فهذه المراحل التي بينها هذا المخطط تعتبر ركنا ركينا في المقاربة البلاغية للنص القرآني الكريم .

المرحلة الأولى صفات المتكلم :

و ذلك لأنَّ معرفة و تبيان صفات المتكلم تجعل القارئ يدرك الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى و غيره من الخطابات البشرية التي يظهر فيها حقيقة ضعف الإنسان؛ أما صفات الله المتكلم في الخطاب القرآني الكريم فهي تعكس الصفات العلى لله تعالى فهو الأوّل الذي ليس قبله شيءٌ، والآخر الذي ليس بعده شيءٌ، وهي صفةٌ ذاتيّة لله جلّ في علاه، والمعنى أنّ الله تبارك وتعالى لم يسبقه شيءٌ في الوجود، فهو موجود قبل خلق الوجود، قال الله تعالى: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيءٍ عليم"[314].

ولهذا إذا وجدنا القرآن يأتي بصفتي الإتيان والمجيء ،مثلا، فهما غير صفات الإتيان و المجيئ لدى المخلوقات ،فصفة الإتيان وصفة المجيء هي الصفات الفعليّة الخبريّة، وهي ثابتة في القرآن والسنّة، فالله سبحانه وتعالى يأتي ويجيء، فيجب أن نؤمن باللفظ والمعنى، دون السؤال عن الكيفيّة، قال الله –سبحانه–: "هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة وقضي الأمر"، وقال –أيضاً–: "وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً". فالإجابة هي صفةٌ من الصفات الفعليّة لله –تعالى–، وهي مأخوذة من اسم الله المجيب، فالله سبحانه وتعالى مجيب للدعوات، قال الله: "وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ"، فهو الذي يجيب دعوات عباده، وهو الذي يجيب المضطرين، وهو الذي يقبل من الانابة من المستغفرين. الإحاطة، فالله تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء

[314] –سورة الحديد الآية :4.

علماً، وأحاط الأزمان، وأحاط الأماكن، فهو الأوّل والآخر، وهو الظاهر والباطن.

المرحلة الثانية كمال وتكامل الخطاب القرآني:

الخطاب القرآني كامل و متكامل كما وصف القرآن القرآن بذلك قال تعالى:"ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا "[315] فقد ساق لنا القرآن الكريم من كل مثل عن هذه الحياة و حقيقتها و أسرارها جسدتها تلك التراكيب القرآنية المحبوكة و المسبوكة سبكا يفوق القُوى و القُدر قال تعالى: "ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل "[316].

كل تلك المعاني التي لا منتهى لها التي تفيض غزارة وقوة و حكمة حملها ذلك اللسان العربي المبين لها ،قال تعالى:" وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا"[317].

و من هنا ؛ فإن أصح و أنصح الطرق في فهم القرآن الكريم "أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ،وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر "[318]،وهكذا يكمل القرآن بعضه بعضا في نسيج محكم منقطع النظير.

لهذا فإن المتأمل في الخطاب القرآن تأمل تدبر و استنطاق لمعانيه "يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب وعلى الإجمال والتبيين وعلى الإطلاق والتقييد وعلى العموم والخصوص ،وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ،وما جاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى"[319] .

المرحلة الثالثة مقاصد الخطاب القرآني:

لا يخفى على أي عاقل أن القرآن الكريم يحمل في ثناياه مقاصد كانت السبب الرئيس في نزوله و منها قوله تعالى: " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا "[320] .

---

[315] – الإسراء:41

[316] – الكهف:54

[317] – طه :113

[318]–مجموع الفتاوى :13/ 363.

[319] – التفسير والمفسورون:40/1.

[320] – النساء :26– 28

لهذا لو تمعنا في بدايات سورة البقرة لوجدنا القرآن يأخذنا إلى المكانة السامقة التي تسمو فيها أرواحنا،وعقولنا، و حياتنا بأكملها عن طريق الهداية التي يضيء لنا القرآن الكريم طريقها ويعبّده لنا حتى نصير من المتقين الذين اتصفوا بصفات الكمال و الجمال عن طريق الإيمان بالغيب ،و امتثال أوامرالله تعلى بالعبادة الصادقة التي تجعل الإنسان خليفة بالفعل الحسن و سمو الأخلاق الطيبة الراقية ؛قال تعالى:" الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(5) "[321].

هذا ولو ربطنا هذه البدايات بأم أم القرآن التي هي قوله تعالى في سورة الفاتحة "إياك نعبد وإياك نستعين" لفهمنا أن المعين على العبادة الحقة هو الله تعالى الذي أنزل علينا الكتاب تبيانا لكل شيء، و توضيحا لما التبس علينا عن قصد أو غير قصد ،و ذلك لأن القرآن الكريم أصله و أمه هو تلك الآية الكريمة.

المرحلة الرابعة خصائص اللسان العربي المبين :

و هي المرحلة التي تقربنا من طرائق العرب في الإبانة عن معانيهم وأغراضهم لأن القرآن نزل بلغتهم و على شاكلة تعبيرهم ، ولهذا وجدنا عبد القاهر يركز في كتابيه على تبيان أسرار البلاغة و طرائق العرب في البيان من أجل أن يتوصل "إلى بيان أمر المعانى كيف تختلف ، وتتفق ، ومن أين تجتمع ، وتفترق ، وأفصّل أجناسَها وأنواعها " [322]،وأن يتبعَ " خَاصَّها ومُشاعها ، وأبيّنُ أحوالَها فى كرم مَنْصِبِها من العقل ، وفى تمكُّنها فى نِصابِه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها – حين تُنسب – عنه ، وكونها كالحليف الجارى مَجْرَى النَّسَب ، أوالزَّنِيمِ المُلْصَق بالقوم ، لا يقبلونه ، ولا يَمْتَعِضُونَ له ، ولا يَذُبُّونَ عنه » [323].

و من هنا ؛وجب على من يريد أن يقترب من خصائص الأسلوب القرآني و يتذوق تراكيبه وألفاظه و يفهم معانيه أنه"لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا وأن تصفها وصفا مجملا وتقول فيها قولا مرسلا ،بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول ،وتحصّل ،وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم ، وتعدَّها

---

[321] –سورة البقرة:1–5.

[322] – عبد القاهر : أسرار البلاغة – ص:26– ط: شاكر.

[323] – المرجع نفسه، نفس الصفحة.

يجمُل بك أن تعيد قراءة مقالة "عبد القاهر" وأن تصـــغي إلى وقع أجراس حروفها وحركتها، وما أقامها عليه من التعادل الصـوتي الذي يملأُ الأذن ، فينفذ في القلب ، فيشـغله بما حمله إليه ذلك الإيقاع الفخم من المعاني ، وكيف أن عبد القاهر يوظف ذلك إيصـالا لمراداته ومعانيه ومغازيه إلى قلبك، فيبعثه على أن يسـتغرق في لذة الفهم التي هي خصـيصـة الصـفوة من أبناء آدم – عَلَيْهِ السَّلام ، فمن ذاق عرف ومن عرف عشق السعي في التي هي أهدى وأقوم .

واحدة واحدة وتسميها شيئا شيئا وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الأبريسم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع ››[324] .

و لا نقصد بذلك القراءة المجملة لقواعد اللغة ومعاني النحو بل القراءة المتمرسة المستنطقة لدقائق اللسان العربي الذي يختزن من الكنوز العظيمة و لا ينالها إلا من تبحر و ألقى دلوه ليستخرج ماءها العذب الزلال، "لأنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصلا ،وحتَّى لا يقنعك إلا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه ، وحتَّى تكونَ كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه ، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذي هو منه ››[325] .

و لعل من أهم مباحثها مبحث الوصل والفصل، ومن ذلك أيضاً صحة التقسيم وهو تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، وصحة التفسير، وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها...[326] ومنها العكس وهو أن تعكس الكلام" فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول"[327].

والعكس بهذا المفهوم استراتيجية يستعملها كثير من المتحدثين؛ لتعطيهم وقفة عقلية لصياغة الجملة التالية، ومنها الرجوع وهو" أن يذكر الشيء ثم يرجع عنه كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك."[328]

والرجوع إضافة إلى علاقته بالتماسك الدلالي، هو استراتيجية حجاجية، ومما له علاقة بالتماسك الدلالي الاستطراد " وهو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه ..."[329].

---

[324] – دلائل الإعجاز– تح: شاكر ص 37

[325] – السابق :260

[326]–ينظر: أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1409هـ/ 1989م، ص 375 – 382.

[327]–المرجع نفسه: ص 411.

[328]–المرجع نفسه: ص 443.

[329]–المرجع نفسه: ص 443.

ومن تلك المباحث أيضاً: جمع المؤتلف والمختلف...، والتوشيح، وشرحه أبو هلال العسكري بأنه ما كان مبتدأ الكلام فيه ينبئ عن مقطعه وأوله يخبر عن آخره[330]، وغير ذلك من المحسنات اللفظية، والمعنوية التي جعلها القدماء كالحلية الزائدة مع أن لها دوراً مهماً في التماسك اللفظي والدلالي للنص.

ولكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مبحث الوصل والفصل، الذي له ارتباط وثيق بمصطلح بلاغة الخطاب من حيث التماسك النصي له، وقد تميّز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تناوله لهذا المبحث في إطار نظرية النظم؛ ولذلك فهو يقول في أهمية الوصل والفصل " اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب"[331].

وينظر عبد القاهر الجرجاني إلى الوصل والفصل من خلال (العطف)، أو عدمه، كما ينظر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى عطف جملة على جملة أخرى معتمداً على مقولة المحل الإعرابي؛ لذلك فعطف الجمل عنده على ضربين:

أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، "وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد... فإذا قلت: (مررت برجلٍ خُلُقه حَسَن، وخَلْقه قبيح) كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جَرٍّ بأنها صفة للنكرة، ونظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل"[332].

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني: وذلك أن "تعطف على الجملة العارية الموضع الإعراب جملة أخرى، كقولك: (زيد قائم وعمرو قاعد) (والعلم حسن والجهل قبيح)... لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعرابٍ قد وجب للأولى بوجه من الوجوه".[333]

يذهب عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، بناء على ذلك، إلى أنه يجب مراعاة أشياء أخرى، وتلك الأشياء ترجع إلى المعاني؛ بحيث تكون جهة جامعة في مثل هذه الحالة .[334]

330– ينظر: المرجع نفسه، ص 452، وص 425.

331– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص 158.

332– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص153.

333– المصدر نفسه، ص 153.

334–ينظر: المصدر نفسه: ص: 153– 154.

وفي الفصل بين الجمل يرى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أنه يكون في الجملة المؤكدة للتي قبلها، وكذلك حينما تختلف جهة الكلام من الحكاية إلى الخبر والعكس... ويذهب بعد ذلك إلى التفصيل في مواضع الفصل تفصيلاً دقيقاً يسنده بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي[335] ويرى الفقي أن مصطلح التماسك مرادف لمصطلح التعليق عند عبد القاهر (471هـ)[336]، وهذا قد لا يكون صحيحاً على إطلاقه وعمومه، ولا يساعد عليه النص المقتبس من الجرجاني عند الفقي، ولكن الأولى بالصواب، فيما أرى، عدُّ مصطلح (النظم) أو (الضم) عند عبدالقاهر (471هـ) أقرب إلى مصطلح التماسك في المفهوم من مصطلح التعليق[337].

ولأجل ذلك فإن نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من أهم النظريات في الجهد اللغوي العربي عند القدماء، وقد تناولها اللسانيون، والنقاد، والبلاغيون، والمفكرون بالدرس[338].

ولكن من المهم أن يعرف في هذا المقام أن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) يقيم نظريته في (النظم) على النحو؛ إذ يقول: "ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيّته حقّه من النظر، وتدبّرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم ..."[339]

والقاعدة في ذلك كله « لا بُدَّ لكلِّ كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة » [340].

المرحلة الخامسة السياق المقامي و الخطاب القرآني :

---

[335]– ينظر: المصدر نفسه: ص: 155-156.

[336]– صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ، ج1، ص 78.

[337]–ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص:75-76

[338] –ينظر كتابنا: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص دراسة تطبيقية في سورة البقرة، الطبعة الأولى 2014م،دار القدس العربي وهران الجزائر ص:153.

[339]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص: 335- 336.

[340] – السابق : 41

يعتبر السياق الخارجي في الحديث عن تنزل القرآن سببا رئيسا من أسباب تنزل السور و الآيات، و ذلك للتطابق مع الأحداث التي تمر بها الطائفة المسلمة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

لهذا فإنَّ النّصّ القرآني خطابٌ متعدّد الجوانب، ونصّ متماسك ومتجانس، ويتضمن أدوات إحالية تقوم بوظيفة الإحالة، منها أدوات الإحالة الدّاخلية ومنها آليات الإحالة الخارجية: فأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان والضمائر وأسماء الموصول وأزمنة الأفعال، وكل الأدلة التعيينية والوصفية والإشارية تعمل على ربط الخطاب القرآني بالواقع الزماني والمكاني الذي أحاط بنزوله باعتباره خطابا[341].

« أُنْزِلَ القرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ القَدْرِ إلَى السَّماءِ الدُّنيَا وَكانَ بِمَواقِعِ النُّجُومِ ، وكانَ ينزل على رسُولِه صلى الله عليه وسلم بعضَه فى أثَرِ بعض ...»[342] لذا كانت العرضتان الأخيرتان للقرآن الكريم فى شهر رمضان الأخير من حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم مطابقتين فى ترتيب الآيات والسور لما هو عليه فى اللوح المحفوظ فى بيت العزة ، وبذلك تطابقت صورة الترتيب الكليّ للقرآن الكريم فى أطورها التنزيليّة الثلاثة ، فما بين أيدينا من صورته الترتيبيَّة آياته وسورة هو ما عليه القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ وفى بيت العزة[343].

الخلاصة :ولقد حاولنا فيما سبق تبيان أهم المراحل التي تمر بها المقاربة البلاغية في فهم القرآن الكريم وتدبره بهدف إظهار جمالية الأسلوب القرآني مع الاعتماد على الأنماط اللغوية المتميزة و الأشكال الأسلوبية والتعبيرية الخاصة ،و المتنوعة التي يحفل بها النص القرآني،وبها تنكشف جمالية البيان القرآني في الجانب التعبيري والأدائي ، والتبليغي. فالقرآن الكريم اتخذ عدة وسائل و انفرد بعدة أشكال تخاطبية و تميز بعدة صيغ أسلوبية في التعبير والإبلاغ والأداء، واستعمل أنماطا متعددة في تركيب المفردات و بناء التعبير، والأشكال التي جاءت في النصوص القرآنية[344].

341–ينظر : النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز ، المرجع السابق، ص 164.

342 – المستدرك الكتاب السابق – حديث:7/2878.

343 – ينظر : مقدمتان في علوم القرآن : ص 39 ،وما بعدها

344 – النحو القرآني على ضوء لسانيات الخطاب للدكتورة هناء محمود إسماعيل.دار الكتب العلمية:2012.

هذا وغيره مما جعل القرآن يسمى بالبيان العالي لأنه "لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك"[345]،وهذا المنحى البياني والجمالي هو ما يعمل المفسر البياني على إظهاره وإبرازه واستكشافه في عمله التفسيري خدمة لأدبية النص القرآني[346].

وتلك المراحل هي المساعد الأساس للمفسر البلاغي لإبراز جمالية النص القرآني وسر تميزه عن غيره مع ضرورة التركيز في هذا التفسير على إدراك خصائص اللغة العربية ، لأن القرآن الكريم جاء حاملا لأعلى مراتب البيان و الانجاز الكلامي ،لهذا وجب التمرس على فنون البلاغة من خلال دراسة الشعر الجاهلي . قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ،واتسع علمه ،وفهم مذاهب العرب واقتناءها في الأساليب"[347].

---

[345] –البيان و التبيين،29/3.

[346] – أدبية النص القرآني : بحث في نظرية التفسير. لعمر حسن القيام. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.2012.يراجع أطروحة الدكتور احمد أبو زيد التناسب البياني في القرآن الكريم. وهي أطروحة منشورة ضمن قائمة منشورات كلية الآداب الرباط المغرب..

[347] – تأويل مشكل القرآن لابن قتيلة :12

الخاتمة:

وفي الختام حولنا طرح جملة من القضايا التي لها علاقة بالخطاب في شتى تمظهراته مركزا على تقنياته التي تساعد على التأثير في المتلقي ،و كسب تأييده أو إذعانه لما يطرح عليه باعتماد الحجاج بأنواعه المختلفة ،و ذلك انطلاقا من اعتبار أن الإنسان في تواصله بلاغي و حجاجي بامتياز.

و من هنا خلصت الدراسة على أن الخطاب يتميز ببلاغته و حجاجيته التي تجعله مؤثرا في المتلقي لهذا الخطاب ، فالتخييل و التداول سمتان تتميز بها اللغة الطبيعية للإنسان ، و الاهتمام باللغة خاصية بشرية منذ أن عرفت البشرية الحياة ،فلا تقوم حضارة إلا إذا كان اهتمام باللغة ظاهر و بارز لأن اللغة هي صورة وجود الأمة.

فهرس المصادر و المراجع

القرآن الكريم

- أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1409هـ/ 1989م،
- أبو بكر العزاوي ،"نحو مقاربة، حجاجية الاستعارة"، ص 79. ضمن مجلة المناظرة، الرباط، س 2، ع 4، 1991.
- إبراهيم زكريا، مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، د.ت
- ابن خلدون،المقدمة.دار الكتاب اللبناني،بيروت،ط/3 ،1983م.
- ابن الرومي: الديوان، تح: د. حسين نصار، الهيئة العامة المصرية للكتاب،
- ابن سينا: التعليقات، تح: د. عبد الرحمن بدوي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
- ابن سينا: المجموع أو الحكمة العروضية في معاني كتاب الشعر، تح: د. محمد سليم سالم، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة
- ابن عاشور ،تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر والتوزيع والإعلان،دت.
- ابن طباطبا،عيار الشعر.
- احمد العمراني ،موسوعة مدرسة مكة في التفسير : تفسير ابن عباس:.دار السلام :2011.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء.
- ابن منظور، لسان العرب،دار صادر،بيروت،لبنان:ط 28- 1997 م،
- أرسطو ،الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي،بغداد :دار الشؤون الثقافية،1986م
- أرسطو : في النفس، تر: إسحق بن حنين، مرا: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية،ط1،
- أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي،مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد يوليو 2001م
- حامد ابو حامد،الخطاب و القارئ،مركزالحضارة العربية ،ط2 القاهرة 2002

- حمادي صمود،تجليات الخطاب البلاغي ،تونس:دار قرطاج للنشؤ،ط1، 1999م،
- حمودة عبد العزيز، المرايا المحدّبة (من النيويّة إلى التفكيك): عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نيسان 1998،
- الخطابي :بيان إعجاز القرآن: ص 29 – ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تح : محمد خلف الله وزغلول سلام – دار المعرف بمصر :1387
-
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الكتب، بيروت لبنان، ط1، 1994.
- رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، دار المعارف، مصر، ط01/ 1993
- روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر)، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية
- رولان بارت قراءة جديدة البلاغة القديمة ترجمة عمر أوكان المغرب إفريقيا الشرق ط1 1994م
- رونالد بارت، بلاغة الصورة،نقله الشرقاوي في البلاغة القديمة
- الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس،تح.عبد الستار أحمد فراج،مطبعة حكومة الكويت،1965م.
- سعيد حسن بحيرى،علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات،مؤسسة المختار للنشر و التوزيع،2004م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي(النص– السياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1989م،ص:111؛
- شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد ، دار الآداب، بيروت، ط1999/1
- شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة ،ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود،كلية الآداب ، منونة،د.ت
- صلاح فضل ،بلاغة الخطاب و علم النص، سلسلة عالم المعرفة،الكويت ، العدد 164،سنة 1992

- صابر الحباشة،التداولية والحجاج،مداخل ونصوص ،صفحات للدراسات والنشر ،الطبعة الأولى، 2008
- طه عبد الرحمن ،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،ط 1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب، 1998
- د.طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، البيضاء ، المغرب، [ط.3] ، 200. عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث: دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1988م7م
-
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح وتعليق محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 200 عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان،تحقيق السيد محمد رشيد رضا،دار المعلرفة،بيروت-لبنان،ط1، 2002م، 5.
- عبد السلام عشير،:إشكالات التواصل والحجاج، مقاربة تداولية معرفية"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، المغرب، 2000
- عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط2، 1982.
- عبد النبي ذاكر، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجلة عالم الفكر، المجلد 40،
- العقاد عباس محمود والمازني، إبراهيم عبد القادر: الديوان: ط4، دار الشعب، القاهرة
- العقاد، بين الكتب والناس: القاهرة، 1952،
- عصفور جابر: نظريات معاصرة: مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998
- علي عجوة، (وأخرون): مقدمة ورسائل الاتصال،(القاهرة: مكتبة مصباح، ط2، 1991)،
- عياد شكري، اللغة والإبداع- مبادئ علم الأسلوب العربيّ: القاهرة، 1988
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الفكر ، بيروت لبنان، 1983

- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى،الشركة العالمية للنشر،ط1 /1997م
- د.محمد سالم الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط2008/1م.
- د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة،بحث في بلاغة النقد المعاصر،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1، 2008م
- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص).
- د. محمد مشبال، كتاب (بلاغة الخطاب الديني) تحرير. منشورات الاختلاف ودار الأمان، الجزائر والمغرب،
- محمد العمري،

1. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"، سنة 2005م بدار افريقيا الشرق.
2. البلاغة العربية الأصول وَالامتدادات"، الطبعة الأولى1998.
3. البلاغة العامة والبلاغات المعممة، ضمن مجلة فكر ونقد،العدد 20 .يناير2000

- محمد مندور، النقد المنهجي عند العربدار نهضة مصر، القاهرة

- محمد الولي،"المدخل إلى بلاغة المحسنات". مجلة فكر ونقد. العدد 17.
- مصطفى ناصف، النقد العربيّ – نحو نظرية ثانية: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،
- الولي محمد، الصورة الشعريّة في الخطاب البلاغي النقدي: المركز الثقافي، بيروت،
- محمود توفيق محمد سعد ا،لعزفُ على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، ،الطبعة الأولى 1424هـ،
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة أمكتبة وهبة ، القاهرة

- من المنطق إلى الحجاج ، حوار أجراه مع د.أبو بكر العزاوي حافيظ اسماعيلي علوي ، فكر ونقد، [ع.61] ن السنة السابعة ، سبتمبر 2004م
- مها خيربك ناصر،النقد العربي البنيوي،مجلة الخطاب ،العدد الثاني :ماي 2007
- ميخائيل نعيمة، الغربال: ط15، نوفل، بيروت، 1991
- ناعوس بن يحيى، تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص دراسة تطبيقية في سورة البقرة، الطبعة الأولى 2014م،دار القدس العربي وهران الجزائر
- هناء محمود إسماعيل، النحو القرآني على ضوء لسانيات الخطاب للدكتورة.دار الكتب العلمية:2012.
- هنريش بليت، البلاغة و الأسلوبية،ترجمة و تقديم محمد العمري ، المغرب ،إفريقيا الشرق ،1999م

المراجع الأجنبية:

- Chaïm Perelman : Rhétorique et philosophie, avec Lucie Olbrechts-Tyteca, Paris, Presses Universitaires de France, 1952.
- L'empire Rhétorique . Ch. Perelman. Librairie Philosophique. 1977
- G.DURAND : Les structures Anthropologique de l'IMAGINAIRE, éd DUNOD, Paris, 11éme éd,1992,
- Jean-Claude Ascombre et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue, Pierre mardaga, éditeur, Bruxelles, 1983
- Michel Meyer, la rhétorique, 1er éd, Paris,2004,

- Michel Meyer : Qu'est-ce que l'argumentation?, Paris, Librairie Philosophique Vrin, 2005.
- Oswald Ducrot, 1980, Les échelles argumentatives, Les éditions de minuit, PARIS
- Philipe breton ,L'argumentation dans la communication(3e édition); Éditions La Découverte, Paris, 1996, 2001, 2003
- Madsen (2006). *How to Win Every Argument*: The Use and ،Pirie Abuse of Logi*c*. A&C Black
- R.AMOSSY :L'argumentation dans le discours, éd NATHAN, Paris, 2000
- Rhétorique restreinte. G. Genette. Figure3. Edition du seuil. Paris 1972

فهرس الموضوعات

المقدمة.....01

البلاغة الجديدة أو نظرية الحجاج عند بيرلمان و تتيكا 03

البلاغة و الحجاج 23

الحجة المغالطة في خطابات التواصل الاجتماعي..... ...41

البلاغة وتحليل الخطاب.....48

نظرية النظم و سؤال البلاغة الجديدة.....63

المقاربة البلاغية في فهم الخطاب القرآني.....88

الخاتمة.....100

فهرس المصادر والمراجع..... 101

فهرس الموضوعات.....107